ملخص كتاب

هنري كيسنجر

القيادة

ست دراسات في الاستراتيجية العالمية

TRENDS RESEARCH & ADVISORY

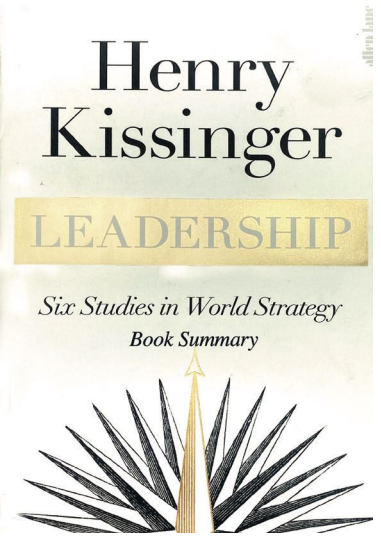

القيادة: ست دراسات في الاستراتيجية العالمية

ملخص كتاب

المؤلف: هنري كيسنجر

عن المؤلف

شغل الدكتور هنري ألفرد كيسنجر منصب وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية بين عامَيْ 1973 و1977 كما شغل منصب مساعد الرئيس لشؤون الأمن القومي الأمريكي من عام 1969 إلى عام 1975. وتولى هذين المنصبين خلال إدارتَي الرئيس ريتشارد نيكسون، والرئيس جيرالد فورد. وفي عام 1973، حصل على جائزة نوبل للسلام بالاشتراك مع لي دوك ثو، من فيتنام الشمالية؛ تقديرًا لجهودهما في التفاوض على تسوية للحرب الفيتنامية.

يعمل الدكتور كيسنجر حاليًا رئيسًا لشركة كيسنجر أسوشيتس Kissinger Associates, Inc.، وهي شركة استشارية دولية. وقد كتب العديد من الكتب والمقالات عن السياسة الخارجية الأمريكية والشؤون الدولية والتاريخ الدبلوماسي. كما أجرى العديد من المقابلات في وسائل الإعلام؛ أشهرها كان عن آرائه حول علاقات الولايات المتحدة الأمريكية مع روسيا والصين.

أهمية الكتاب

يحلل كيسنجر في هذا الكتاب حياة ستة قادة استثنائيين، وذلك من خلال الاستراتيجيات المتميزة لفن الحكم والإدارة، ويقدّم مجموعة رائعة من دراسة الحالة التاريخية والسِّيَر السياسية التي تمزج بين الأحداث والشخصية القيادية بسلاسة. والقادة الستة هم: كونراد أديناور، وشارل ديغول، وريتشارد نيكسون، وأنور السادات، ولي كوان يو، ومارغريت تاتشر. وقد برز جميع هؤلاء القادة في فترة انهارت فيها المؤسسات القائمة في جميع أنحاء أوروبا، وأفسحت الهياكل الاستعمارية المجال للدول المستقلة في آسيا وأفريقيا، وكان لا بد من إقامة نظام دولي جديد من بقايا النظام القديم. ولأن كيسنجر كان على معرفة بكل موضوع من المواضيع التي يتناولها وشارك في العديد من الأحداث التي يصفها، فإنه يضفي الإدراك التاريخي والخبرة العامة والمعرفة الشخصية على كل هذه الدراسات. ويذخر الكتاب بالرؤى الحصيفة والأحكام التي لا يمكن أن يأتي بها شخص سوى كيسنجر، ويختتم بتأملاته حول النظام العالمي واستحالة الاستغناء عن القيادة والحنكة السياسية في فن الحكم اليوم.

ملخص تنفيذي

- يناقش كيسنجر دور القيادة في المجتمع، خصوصًا في أوقات الانتقال وعدم اليقين. ويؤكد أن القيادة أمرٌ ضروري لتوجيه أيّ مجتمع بين ماضيه ومستقبله، ولسدِّ الفجوة بين القيم الراسخة والطموحات الجديدة. ويُنظر إلى القادة على أنهم صُنَّاع قرار ينبغي لهم تحليل تاريخ المجتمع وظروفه وقدراته لكي يتخذوا خيارات تحرِّك تطوّر المجتمع وتوجِّهه، ويوازنون المعرفة المستقاة من الماضي مع الرؤى الحدسية حول المستقبل من أجل وضع الأهداف والاستراتيجيات.

- يُقال إن القيادة الفاعلة تتطلب شجاعة وشخصية قوية، ولا بد من توافر الشجاعة لاتخاذ القرارات الصعبة واختيار التوجهات. والشخصية القوية تحافظ على الالتزام بالقيم على مرّ الزمن. ويسلّط الكتاب الضوء على أهمية التواصل والقدرة على حفز الناس وحشد الدعم بينهم.

- يعمل القادة ضمن إطار من القيود، بما فيها ندرة الموارد، ومحدودية الوقت، والمنافسة. وتتضمن عملية القيادة اتخاذ قرارات استراتيجية في ظل هذه القيود، وكثيرًا ما تُتَّخذ هذه القرارات بناءً على معلومات محدودة، ما يجعل القدرة على إدارة المخاطر أمرًا ضروريًّا. ويشبّه الكتاب القيادة الاستراتيجية بالسير على حبل مشدود بين يقينيات الماضي ومجاهيل المستقبل. ويؤكد ضرورة أن يتكيف القادة ويتخذوا قرارات حتى في الحالات التي تنعدم فيها المعلومات.

- يناقش هذا القسم تأثير الظروف التاريخية في حياة ستة أشخاص بارزين وفي قدراتهم القيادية، وهم: كونراد أديناور، وشارل ديغول، وريتشارد

نيكسون، وأنور السادات، ولي كوان يو، ومارغريت تاتشر. وقد صنعت هؤلاء القادة الأوقاتُ المضطربة التي عاشوا فيها، بما فيها نتائج الحربين العالميتين الأولى والثانية.

- يناقش الكتاب نوعَيْن مميزين من القيادة: رجل الدولة، والنبي. ويؤكد أن معظم القادة إداريون، في حين أن بعض القادة يُحدِثون تحولات في أوقات الأزمات. وللنوعين من القادة، رجال الدولة والأنبياء، مقاربات وأولويات مختلفة.

- يتصف رجال الدولة بالبراغماتية والتركيز على الحفاظ على مجتمعهم من خلال التكيّف مع الظروف وتشجيع التطور التدريجي. إنهم يتبنّون التغيير مع الحفاظ على جوهر مجتمعهم، كما أنهم حذرون ويدركون القيود المحيطة، حتى بالخطط المصمَّمَة تصميمًا جيدًا. ويعملون داخل إطار التاريخ ويهدفون إلى تحريك مجتمعاتهم إلى الأمام ونقل القيم الأساسية إلى الأجيال القادمة في الوقت نفسه.

- أما الأنبياء، فإنهم قادة رؤيويون يَتَحَدَّون الوضع القائم ويهدفون إلى إعادة تعريف ما هو ممكن، ويسعون إلى تغيير جذري، وكثيرًا ما يتغاضون عن التدرّج في سعيهم إلى تحقيق رؤيتهم. ويُلغي القادة النبويون الماضي لكي يضعوا الأساس لمشاريعهم الجديدة. إنهم يركّزون على المعايير المطلقة ومستعدون لتحمُّل شتى أنواع المعاناة من أجل تحقيق أهدافهم.

- يناقش الكتاب التحدي المتواصل الذي يواجهه القادة، ألا وهو: مَنعُ المطالب الحالية من أن تطغى على التطلعات المستقبلية، وينقّب في الجدال التاريخي حول العلاقة بين الإرادة البشرية والأحداث الحتمية. وقد برز في العالم الغربي منظور يرى أن الأحداث تحرّكها عمليات ضخمة، ما يجعل الأفراد أدواتٍ بدلًا من مبدعين. وكان علماء، مثل فيرناند براوديل، قد رأوا الأفراد وتصرفاتهم بمثابة اضطرابات سطحية في بحر المّد والجزر التاريخي الأوسع.

ملخص تفصيلي

الفصل الأول: كونراد أديناور - استراتيجية التواضع

- يناقش الكتاب تداعيات الحرب العالمية الثانية في ألمانيا والتحديات التي واجهها القادة خلال تلك الفترة. ويقدّم تفصيلًا لتاريخ الحكم في ألمانيا، من الملكية إلى الجمهورية إلى الدولة الشمولية. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، خسرت ألمانيا شرعيتها واستقرارها، ووقَعَت مسؤولية استرداد الكرامة والشرعية على كونراد أديناور، الذي عمل عمدةً لمدينة كولونيا.

- يصف المؤلف حياة كونراد أديناور المبكرة ومسيرته السياسية التي أفضت إلى دوره قائدًا خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. فقد كان والد أديناور، يوهان، ضابط صف سابقًا، ووالدته المنحدرة من عائلة مصرفية، عازمَيْن على توفير فرص تعليمية له. وتضمنت تنشئة أديناور القيم الكاثوليكية، بالتشديد على الخطيئة والمسؤولية الاجتماعية.

- أصبحت معارضة أديناور لصعود هتلر إلى السلطة واضحة ومتجسدة في أفعال وتصرفات مختلفة، بما في ذلك التصويت ضد قانون التمكين وإزالة الأعلام النازية من المعالم التاريخية العامة. وبعد فصله من منصبه بعد انتخاب هتلر، بحث عن ملجأ في أحد الأديرة؛ حيث درس المنشورات البابوية التي تتوافق مع قناعاته السياسية.

- في ديسمبر 1945، حضر أديناور اجتماعًا لتكوين حزب جديد أصبح في النهاية حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي، الذي جمع أعضاء سابقين في

حـزب الوسـط الكاثوليـكي وحـزب الشـعب الوطنـي الألمـاني المحافـظ، والحـزب الديمقراطـي الألمـاني الليـبرالي. وسـاعد أدينـاور في صياغـة الفلسـفة السياسـية لحـزب الاتحـاد الديمقراطـي المسـيحي، التـي تؤكـد عـلى الديمقراطيـة والمحافظـة الاجتماعية والتكامل الأوروبي، وترفض ماضي ألمانيا القريب ونظامها الشمولي.

- روّجـت خطابـات أدينـاور العامـة للمحاسـبة الذاتيـة واتّبـاع نهـج متواضـع تجـاه مـاضي ألمانيـا. ودعـا إلى مسـتقبل أوروبي بـدلًا مـن الانغـماس في النزعـة القوميـة المتحسِّرة عـلى الـذات. وكان أسـلوب أدينـاور في القيـادة عـلى النقيـض مـن أسـلوب هتلـر؛ حيـث كان يطمـح إلى إقامـة حكـم مسـالم وآمِـن. وقـد جعلتـه سـمعته والثقـة التـي اكتسـبها بالنـأي بنفسـه عـن هتلـر، خيـارًا طبيعيًّـا لقيادة حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي.

- أكـد خطـاب قبـول أدينـاور عـلى تكويـن اتحـاد أوروبي حقيقـي للتغلـب عـلى النزعـة القوميـة، وقـدم موجـزًا لإقامـة شراكـة في مجـال السياسـة الخارجيـة مـع القـوى الأجنبيـة المحتلـة وتحالـف مـع الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. وكان نهـج أدينـاور البراغـماتي والرؤيـوي مـؤشرًا إلى تحـوُّل عميـق في دور ألمانيـا في تشـكيل أوروبـا جديـدة مـن خـلال الإجـماع وتوافـق الآراء، حتـى مـع بقـاء ألمانيـا تحـت المراقبة والاختبار في نظر جيرانها.

- كانـت أولويـة أدينـاور تتمثـل في تقويـة العلاقـات مـع الغـرب، خصوصًـا الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، مـن أجـل اسـتعادة مكانـة ألمانيـا في العـالم. وكان يهـدف إلى دمـج ألمانيـا في أوروبـا الغربيـة وإعطـاء الأولويـة للتعـاون والتصالـح بشأن إعادة توحيد الدولة المنقسمة.

- تبنّـى أدينـاور خطـة مارشـال، بوصفهـا وسـيلة لتحقيـق الوحـدة الفيدراليـة والتعـاون الأوروبيَّـيْن، ووافـق عـلى اتفاقيـة (الـرور) كجـزء مـن هـذه العمليـة؛ حيـث فسَّرهـا عـلى أنهـا خطـوة نحـو نظـام اقتصـادي جديـد في أوروبـا الغربيـة.

وكان توجهه هو الخضوع لسيطرة الحلفاء مؤقتًا من أجل تحقيق المساواة على المدى الطويل.

- رأى الاتحاد السوفيتي في إعادة بناء اقتصاد ألمانيا الغربية وبناء مؤسساتها السياسية تحديًا مباشرًا. ففي عام 1948، حاصر الاتحاد السوفيتي طرق الوصول إلى برلين، متحديًا اتفاقية القوى الأربع الخاصة بحكم المدينة بعد الحرب العالمية الثانية. وأقامت الولايات المتحدة الأمريكية جسرًا جويًّا للتغلب على الحصار. وأنهى الاتحاد السوفيتي حصار برلين في عام 1949، لكنه أنشأ جمهورية ألمانيا الديمقراطية (ألمانيا الشرقية) في منطقتها وأحْكَم تقسيم ألمانيا.

- سعى أديناور إلى مصالحة ألمانيا مع جيرانها، خصوصًا فرنسا، والدعوة إلى التكامل الأوروبي. وتم اقتراح جماعة الدفاع الأوروبية، التي تضمنت إدماج وحدة عسكرية ألمانية. وواجه أديناور معارضة من فرنسا ومن برلمان ألماني منقسِم.

- نجح أديناور في إعادة بناء القوات المسلحة الألمانية، ما أدى إلى الحصول على العضوية الكاملة في حلف الناتو وإنهاء قانون الاحتلال في عام 1955. ومن خلال استراتيجية التواضع والتصالح، حوّل أديناور ألمانيا الغربية من حالة التقسيم ما بعد الحرب إلى الاندماج الكامل في أوروبا وحلف الناتو، محققًا بذلك الأهداف التي حددها خلال تنصيبه مستشارًا لجمهورية ألمانيا الاتحادية.

- كان نهج أديناور الأخلاقي في السياسة الخارجية، خصوصًا فيما يتعلق بتعامل ألمانيا مع الشعب اليهودي، معقَّدًا بسبب الجرائم النازية التي ارتُكِبت في حق اليهود خلال الهولوكوست. وأقرَّ بالواجب الأخلاقي والمصلحة الذاتية الوطنية الألمانية في تقديم تعويضات للناجين وورثة

الفظائع النازية الوحشية، غير أن التزامه باجتثاث النازية، حينما كان أيضًا رئيسًا لحزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي، شكّل الكثير من التحديات لأنه أثّر في جزء كبير من الناخبين.

- ركّز أديناور على المصالحة الداخلية وتعويض الناجين من الهولوكوست بدلًا من الانتقام. وفي عام 1951 طلبت إسرائيل تعويضات قدرها 1.5 مليار دولار من قوى الاحتلال والحكومتين الألمانيتين. وردّ أديناور نيابة عن الجمهورية الاتحادية، معترفًا بالجرائم المروّعة التي ارتُكِبت وواجب ألمانيا الأخلاقي والمادي أن تقدّم تعويضات.

- اتسمت زيارة أديناور لإسرائيل بالتوتر بينه وبين ورئيس الوزراء الإسرائيلي، ليفي إشكول. فقد أكد إشكول أن العلاقات الألمانية-الإسرائيلية لا يمكن أن تكون طبيعية؛ بسبب الهولوكوست، في حين أكد أديناور حُسْنَ نية ألمانيا. وفي أعقاب استعادة ألمانيا لسيادتها واندماجها في النظام الأوروبي والدولي، برزت تحديات جديدة أمام المستشار أديناور.

- يتأمل كيسنجر تجاربه وتفاعلاته مع المستشار أديناور. وكان كيسنجر قد هرب من ألمانيا النازية مع عائلته وأصبح فيما بعد أكاديميًّا ومستشارًا لدى البيت الأبيض في عهد الرئيس كينيدي. وفي أواخر خمسينيات القرن العشرين، تعامل مع مسؤولي حكومات أجنبية، بما في ذلك إدارة أديناور؛ بهدف صياغة السياسة الأمريكية تجاه ألمانيا التي أصبحت جزءًا من حلف الناتو.

- وعلى الرغم من إعجاب كيسنجر بقيادة أديناور، فقد ظل قلقًا بشأن التأثير النفسي لتاريخ ألمانيا العنيف على عملية صنع القرار خلال حقبة الحرب الباردة. وأشار إلى الآثار النفسية العميقة في ألمانيا التي أفرزتها خسارة حربَيْن عالميتين، والثورات التي مرّت بها، وارتكاب جرائم في الحقبة

النازيـة. ولاحـظ جـوًّا مـن الهسـتيريا والتصرفـات غـير المتّزنـة، ووصـف ألمانيـا بأنها مرشحة للإصابة بانهيار عصبي.

- في هـذا القسـم مـن الكتـاب (أكتوبـر 1957)، يـسرد المؤلـف محادثـة أجراهـا مـع المستشـار أدينـاور حـول العلاقـات الدوليـة والـردع النـووي، حيـث أكـد أدينــاور عــلى الطابــع الجوهــري والدائــم للــصراع بــين الغــرب والاتحــاد الســوفيتي، وحـذّر مـن تقديـم تنـازلات للسـوفييت أو الألمانيـين الشرقيـين، وأكـد أن وضع برلين المنقسِم يمكن تَقَبُّله على الرغم من التحديات.

- ناقـش أدينـاور أيضًـا الانشـقاق المحتمَـل بـين الصـين وروسـيا، ملمّحًـا إلى أن المراقبـين الجاديـن يعتقـدون أن حدوثـه وشـيك. ونبّـه إلى أن الوحـدة الغربيـة ضروريــة وأن النزاعــات بــين الحلفــاء ينبغــي تجنّبهــا، في مواجهــة التحديــات العالميـة المتطـورة. ونَسَـبَ أدينـاور وجهـة النظـر هـذه إلى المؤلـف، عـلى الرغـم مـن أن الانشـقاق الصيني-السـوفيتي لم يكـن متوقَّعًـا عـلى نطـاق واسـع في ذلـك الوقت.

- كان التركيـز الأسـاسي للمحادثـة منصبًّـا عـلى موثوقيـة الضـمان النـووي الأمريـكي. وقـد عـبّر أدينـاور عـن قلقـه تجـاه مـا إذا كانـت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة سـتجازف حقًّـا بالدمـار النـووي دفاعًـا عـن حلفائهـا. وطـرَح سـيناريوهات افتراضيـة لاختبـار العزيمـة الرئاسـية الأمريكيـة، مثـل المخاطـرة بدمـار نـووي في الأشـهر الأخـيرة مـن ولايـة أي رئاسـة أو بعـد انفجـار قنبلـة هيدروجينيـة في مدينة أمريكية كبرى.

- يصـف المؤلـف محادثـة جـرت في 18 مايـو 1961 مـع المستشـار أدينـاور، عـلى خلفيـة مشـهد سـياسي متغـير. فقـد مثَّـل جـون إف كينيـدي، الرئيـس الأمريـكي الجديـد، فاصـلًا بـين الأجيـال وكان يجابـه تحديـات إدارة الأهـداف العالميـة، بمـا فيها طمأنة ألمانيا المهزومة.

- سعى أديناور وكينيدي إلى تحقيق أهداف مهمة، ولكن منهجَيْهما كانا مركَّزَيْن في نقاط انطلاق مختلفة. فقد تولى أديناور منصبه عندما كانت ألمانيا في أدنى وضع لها، وكان يسعى لإعادة بناء القيم الديمقراطية وسط فوضى الاستسلام غير المشروط. وفي المقابل، جاءت رئاسة كينيدي في ذروة القوة الأمريكية والثقة بالنفس، مع إيمان صارم بالمهمة الإلهية للولايات المتحدة الأمريكية القائمة على القيم الديمقراطية والقوة المهيمنة.

- لمعالجة مخاوف أديناور، تم ترتيب جلسة إحاطة خاصة، ترأّسها المؤلف، تركّز على السياسة الأمنية الأمريكية والقدرات النووية. لقد تغيّر موقف أديناور، المتشكك في البداية؛ بسبب الإحاطة التي أكدت قوة القوات النووية الأمريكية الساحقة، مقارنة بالسوفييت. وتغيّرت نظرته وأعرَب عن امتنانه لقوة الولايات المتحدة الأمريكية في الدفاع عن الحرية.

- وجد الشعب الألماني نفسه منقسمًا بعد الحرب العالمية الثانية، بتقسيم البلاد إلى ألمانيا الشرقية الشيوعية وألمانيا الغربية الديمقراطية. وكانت سياسة أديناور تقوم على التعامل مع هذا التقسيم على أنه مؤقّت، متوقعًا توحيد البلدين في نهاية المطاف من خلال تفكيك دائرة النفوذ السوفيتي، والنمو الاقتصادي للجمهورية الاتحادية، وقوة الحلف الأطلسي، والتوترات الداخلية داخل حلف وارسو. لقد ظل توحيد الألمانيتَيْن قضية سياسية رئيسية في ألمانيا الغربية، وأدت الضغوط السوفيتية باستخدام وعد التوحيد إلى تعقيد الوضع.

- تهدف سياسة أديناور إلى الحفاظ على علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة الأمريكية، والاندماج في أوروبا، وتقوية الحلف الأطلسي. وكان يعتقد أن وضع برلين، بوصفها العاصمة التاريخية لألمانيا، لا ينبغي التفاوض حوله على حساب التقسيم المؤقَّت. لكن الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني،

الـذي يواجـه هزائـم انتخابيـة ويتأثـر بمنـاورات خروتشـوف، بـدأ يغـيّر موقفـه تجـاه المفاوضـات مـع أوروبـا الشرقيـة وألمانيـا الشرقيـة، وكان هـذا إيذانًـا ببداية استراتيجية السياسة الشرقية Ostpolitik.

- يـدرس القسـم الـذي عنوانـه «المحادثـات النهائيـة» منظـور أدينـاور مـا بعـد تنحّيـه عـن منصـب المستشـار، وأفـكاره حـول مسـتقبل ألمانيـا، والقيـادة، وحرب فيتنـام، وأهميـة الحلـف الأطلـسي: تنحّـى أدينـاور في عـام 1963 بعـد 14 عامًـا أمضاهـا في منصـب المستشـار. وعـلى العكـس مـن بعـض القـادة الذيـن ظلـوا مرتبطـين بأدوارهـم السـابقة، بـدا أدينـاور منفصـلًا عـن القضايـا المبـاشرة وأكـثر تركيزًا على الاتجاهات الطويلة الأجل في ألمانيا.

- كان أدينـاور قـد ناقـش مخاوفـه بشـأن تصـوّر ألمانيـا لذاتهـا واسـتمراريتها التاريخيـة، وذلـك خـلال محادثـة في ينايـر 1967، قبـل وقـت قصـير مـن وفاتـه. وكان يعتقـد أن ألمانيـا كانـت مضطربـة ليـس فقـط بسـبب ماضيهـا النـازي، بـل أيضًـا بسـبب غيـاب الرؤيـة والوعـي التاريخـي. وتوقّـع أن ردود أفعـال ألمانيـا على التطورات الطارئة في التاريخ يمكن أن تؤدي إلى عدم استقرار دائم.

الفصل الثاني: شارل ديغول - استراتيجية الإرادة

- عندما زار نيكسون باريس، رحب به الرئيس الفرنسي، شارل ديغول، شخصيًّا في المطار ورفع المناسبة إلى مستوى زيارة رسمية. وركّز ديغول في كلمته الترحيبية على المصلحة الوطنية الفرنسية واحترامه الشخصي لنيكسون، من دون أن يذكر العبارات التي كانت سائدة بين القادة الآخرين في العواصم الأوروبية، مثل حلف الناتو أو السوق المشتركة. وخلال حفل استقبال في الإليزيه، واجه ديغول نيكسون بشأن حرب فيتنام، وتحوَّل حديثهما إلى المصداقية الأمريكية الدولية والشرق الأوسط.

- اختلفت مبادئ ديغول عن مبادئ الرؤساء الأمريكيين السابقين، باعتراضها على السياسات الأطلسية. ودعا نيكسون أستاذًا للتاريخ للتعليق، ما أدى إلى مناقشة حول بسمارك وهيمنة ألمانيا في أوروبا. وفي عام 1940، بعد هزيمة القوات الفرنسية في النرويج، حلّ بول رينو محلّ إدوارد دالاديه في رئاسة الوزراء. وتمت ترقية ديغول، الذي كان آنذاك عسكريًّا محترفًا غير معروف إلا لقليل من الناس، واختاره رينو وكيلًا لوزارة الدفاع.

- عندما واجهت فرنسا الغزو الألماني، طار ديغول إلى لندن في 18 يونيو 1940؛ حيث ألقى خطابًا جريئًا على الـ (بي بي سي) أعلن فيه تشكيل حركة مقاومة ضد سياسات الحكومة الفرنسية. ودفع استسلام فرنسا ديغول إلى السعي لاستعادة السيادة الفرنسية من خلال حركة الفرنسيين الأحرار.

- في 23 يونيو، خاطب ديغول المارشال بيتان، رئيس فرنسا الفيشية، منتقدًا وقف إطلاق النار ومنفصلًا رسميًّا عن الحكومة الفرنسية. واعترف تشرشل بديغول زعيمًا للفرنسيين الأحرار في 28 يونيو، الأمر الذي عزّز العلاقة وسمح للفرنسيين الأحرار بالعمل على نحو مستقل تحت القيادة العليا البريطانية أو القيادة العليا للحلفاء.

- شكّل الاعتراف نقطة تحول في قيادة ديغول لحركة الفرنسيين الأحرار ومهّد الطريق لجهودهم من أجل استعادة سيادة فرنسا والمشاركة في تحرير البلاد.

- يصف الكتاب حياة شارل ديغول المبكرة وخبراته، موضحًا دوره كجندي ماهر ومحلل استراتيجي قبل عام 1940. فقد أصيب خلال الحرب العالمية الأولى وأُسِر لاحقًا. وعندما كان في السجن، تعلّم اللغة الألمانية ودرس الصحف الألمانية وانخرط في نقاشات حول الاستراتيجية العسكرية.

- تضمنت رؤى ديغول التنبُّئِيّة خلال الحرب توقُّعَه مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية في النهاية والاعتراف بأهمية الاصطفاف مع القوى المنتصرة. وكان الوحيد بين أقرانه العسكريين الفرنسيين في صحة تحليله.

- طوّر ديغول أسلوبًا تحويليًّا في القيادة يتميز باستحضار الرؤى المتجاوزة للواقع وإقناع الآخرين بقبولها. وكان يرى أن السياسة ليست فن الممكن، بل فن الإرادة.

- بعد ذلك يناقش كيسنجر قيادة ديغول وأفعاله خلال الحرب العالمية الثانية، بوصفه قائدًا للفرنسيين الأحرار. وفي صيف عام 1940، عندما أخضع هتلر أوروبا وكانت فرنسا تحت الاحتلال الألماني، أعلن ديغول نفسه قائدًا لفرنسا الحرة. وجاءت شرعيته من اقتناعه بأنه يجسّد الوحدة الوطنية في أوقات الخطر.

- كانت ثقة ديغول بنفسه قد مكّنته من التفاوض مع قادة، مثل تشرشل وروزفلت وستالين؛ لتأمين مكانة فرنسا في أوروبا المُعاد تشكيلُها. وبالاستعانة بمجموعة صغيرة من المستشارين وقوة عسكرية محدودة، ركّز ديغول على إنشاء قاعدة للشرعية من خلال استقطاب قوات الإمبراطورية الفرنسية المقاتلة للوقوف إلى جانب الفرنسيين الأحرار، وكان يهدف إلى تحرير المستعمرات من سيطرة فيشي لكي يضع الأساس لنهوض فرنسا في حقبة السلام ما بعد الحرب.

- كان سلوك ديغول نابعًا من مفهوم «العظمة» لديه؛ وهو دافعٌ للتفوق صبغ السلوك الفرنسي عبر التاريخ. ويوضح القسم التالي الصراعات المعقَّدة على السلطة والمناورات السياسية التي انخرطت فيها شخصيات فرنسية مختلفة خلال وبعد غزو الحلفاء لشمال أفريقيا في نوفمبر 1942 في عملية عُرفت باسم «عملية الشُّعلة» في الحرب العالمية الثانية.

- بعد ذلك الغزو، هبطت القوات الأمريكية والبريطانية في دولتَيْ المغرب والجزائر الفرنسيتين. وأدت الأهمية الاستراتيجية للجزائر إلى بروز أسئلة عن إدارة فرنسا نفسها. وادّعى شارل ديغول، زعيم الفرنسيين الأحرار، القيادة، غير أن الحلفاء لم يخبروه بخططهم وجاؤوا بمُنافِس ممكن، الجنرال هنري جيرو، إلى الجزائر.

- عندما هبط الحلفاء في البر الفرنسي الرئيسي في عام 1944، تحوّل ديغول من زعيم مهمَّش إلى الشخصية التي لا نزاع حولها لقيادة الفرقة العسكرية الفرنسية التابعة للحلفاء والزعيم المحتمَل للحكومة، وكانت فراسته وعزيمته السياسيتان عاملَيْن محوريَّيْن في صوغ مسار فرنسا خلال هذه الفترة الحرجة.

- ينتقل الكتاب إلى مناقشة الفترة المحيطة بتحرير فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، بالتركيز على جهود الجنرال شارل ديغول لتثبيت سلطته

السياسية وصياغة سردية تحرير فرنسا. وعلى الرغم من أن الحلفاء الغربيين تقبّلوا سيطرة ديغول على الجيش الفرنسي الموجود، فقد كانوا مترددين في معاملته كشريك على قَدَم المساواة في تحديد شكل الحكومة الفرنسية المستقبلية.

- في يونيو 1944، قام ديغول بزيارة سياسية إلى نورماندي، بعد وقت قصير من هبوط الحلفاء فيها؛ بهدف ترسيخ وجوده واستحداث مكانةٍ لانتصار فرنسي منقطع النظير. وقد قلَّل من قيمة إسهامات القوات البريطانية والأمريكية ليؤكد على الدور الفرنسي.

- من خلال الخُطب والأفعال خلال تحرير باريس، عزّز ديغول شرعيته بوصفه قائدًا. وتمّ دمج المقاومة في الحكومة المؤقتة الجديدة، ما يعكس هدف ديغول المتمثل في تحقيق الوحدة الوطنية. وكان إيمانه بأهمية الوحدة لتعافي فرنسا ما بعد الحرب قد دفعه إلى تركيز جهوده لتأسيس دولة قوية موحدة.

- ينتقل الكتاب إلى وصف أفعال الجنرال شارل ديغول ومفاوضاته بعد إقامة حكومته المؤقتة في فرنسا بعد تحريرها في عام 1944. وسارع ديغول إلى تأسيس النظام في فرنسا؛ حيث وازَنَ بين الأفعال الثأرية ضد قادة فيشي والمتعاطفين مع النازية وأعمال العفو. وكان يهدف إلى إيجاد نظام رئاسي قوي يستطيع توحيد الأمة بما يتجاوز انقسامات الجمهورية الثالثة.

- كان سفر ديغول إلى موسكو في نوفمبر 1944 يهدف إلى استعادة النفوذ الدبلوماسي الدولي لفرنسا، والسعي إلى توطيد فرنسا، بصفتها دولة فاعلة مستقلة لها خياراتها الخاصة، وليست مجرد متوسِّل يحاول الدخول في المؤتمرات الدولية. وفي المناقشات مع ستالين، اقترح ديغول إعادة تشكيل أوروبا الوسطى، بما فيها الأراضي الألمانية التي تمّ التنازل عنها لفرنسا.

- يصف هذا القسم قيادة شارل ديغول لفرنسا الحرة وجهوده لإعادة بناء دولة فرنسية قوية وشرعية. وكان هدف ديغول هو استعادة النظام بعد التحرير، وترسيخ فرنسا كشريك على قَدَم المساواة مع الحلفاء، وتأمين هوية فرنسية قوية. وكان يؤمن بمفهوم الدولة، بوصفها ميثاقًا بين الأجيال، في ترديد لفكرة إدموند بيرك عن المجتمع، بوصفه شراكة بين أجيال الماضي والحاضر والمستقبل.

- كانت قيادة ديغول خلال الحرب، وتأكيده على وجود بديل فرنسي دولي للدولة الفيشية وتصميمه على القتال من أجل الهوية الفرنسية، عوامل أسهمت في أسطورة الاستمرارية بتصوير فرنسا الحرة على أنها استمرار حقيقي للدولة الفرنسية. وقلّل من أهمية فيشي، الأمر الذي مكّنه من تفكيك الجماعات المتشددة وإقامة نظام عدالة أكثر اتساقًا.

- في المسائل العسكرية، أعطى ديغول الأولوية للاعتبارات السياسية أكثر من الاعتبارات العسكرية المَحْضَة. وعارَضَ سحب القوات الفرنسية من ستراسبورغ حتى عندما أوصى الحلفاء به؛ وذلك بسبب الأهمية التاريخية للمدينة. وقد تمّ حل هذا النزاع بموافقة أيزنهاور على السماح ببقاء القوات الفرنسية في المدينة وبفضل تحسّن الظروف العسكرية.

- فُوجئ الكثيرون باستقالة ديغول في يناير 1946. وكان قراره بتقديم استقالته متأثرًا باحتقاره للحكم الذي تهمين عليه الأحزاب ورغبته في تحقيق رؤيته المتمثلة في إقامة سلطة مركزية ذات شرعية واسعة. وأعرب عن أمله في أن يؤدي تنحيه إلى دفع القيادة السياسية إلى الاعتراف بأنه شخص لا غنى عنه وأن تُصلِح أساليبها.

- كانت استقالة ديغول المفاجئة، بعد قيادته لفرنسا الحرة، قد أكدت استعداده لقطع علاقته مع فرنسا الرسمية إذا لم تَعُد قناعاته متماشيةً مع

توجههـا، لذلـك كان اختيـاره أن «أنسـحب مـن الأحـداث قبـل أن تنسـحب منـي». واسـتقر في منـزل ريفـي بسـيط يسـمى «لا بواسّـوري» في كومونـة كولومبـي لي دي زغليـز، بعيـدًا عـن مركـز السـلطة السياسـية. وكانـت صـورة ديغـول كرجـل اختـاره القـدَر وزاهـدٍ في السـلطة في حـدِّ ذاتهـا، تتـماشى مـع حياته المعزولة خلال هذه الفترة.

- يناقـش الكتـاب تجربتـين مهمتـين بعـد الحـرب اختبرتـا نفـوذ الجمهوريـة الرابعة وموقفهـا تجـاه مجـالات الاهتـمام الجيوسـياسي السـابقة بالنسـبة إلى فرنسـا. فقـد اسـتعمرت فرنسـا الهنـد الصينيـة خـلال الفـترة مـن عـام 1862 إلى عـام 1907، وأصبحـت خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة تحـت الإدارة اليابانيـة والفيشـية. وحـذّر ديغـول الولايـات المتحـدة الأمريكيـة لاحقًـا مـن التدخـل في المنطقـة بنـاءً عـلى تجربتـه، وصرّح بـأن فرنسـا لـن تعـارض التدخـل الأمريـكي ولكنها لن تشارك ما لم تندلع حرب عالمية.

- في عـام 1956، اسـتولى جـمال عبـد النـاصر عـلى السـلطة في مـصر، مـا أدى إلى زيـادة العلاقـات المصرية-السـوفيتية وتأميـم قنـاة السـويس المملوكـة لفرنسـا وبريطانيـا. وسَـعَت بريطانيـا إلى اسـتعادة علاقتهـا المتميـزة مـع الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، في حـين تنامـى إحبـاط فرنسـا، الأمـر الـذي أحـدَثَ صَدْعًـا داخـل الحلـف الأطلـسي اسـتمر حتـى عـودة ديغـول. ويسـلط الكتـاب الضـوء عـلى الديناميكيـات المعقَّـدة المحيطـة بالجزائـر وعـودة شـارل ديغـول إلى السلطة في فرنسا.

- احتلـت فرنسـا الجزائـر في عـام 1830 وأُعطِيـت وضعًـا خاصًّـا بـين الأقاليـم الفرنسـية الخارجيـة. وبحلـول خمسـينيات القـرن العشريـن، كانـت الجزائـر تضـم نحـو مليـون مسـتوطن، معظمهـم مـن أصـل فرنـسي وجنـوب أوروبي. وكان يُنظَـر إلى الجزائـر في البدايـة عـلى أنهـا تجسـيد لإبـراز القـوة الفرنسـية،

ولكـنّ وَضعَهـا تغـيّر عندمـا بـدأت جبهـة التحريـر الوطنـي الجزائريـة تشـنّ هجـمات بطريقـة حـرب العصابـات مـن أجـل إقامـة دولـة مسـتقلة. وأعلـن رئيـس الـوزراء منديـس فرانـس، ارتبـاط الجزائـر المتكامـل بفرنسـا، لكـن التمـرد اشـتد، وغضـب المسـتوطنون مـن عـدم قـدرة الحكومـة الفرنسـية في باريـس عـلى حمايتهـم، فشـكّلوا مجموعـات حراسـة أهليـة، وحـدث اسـتياء عسـكري وازداد الاستقطاب.

- اتخـذ ديغـول موضعًـا لنفسـه بطريقـة ماهـرة؛ حيـث لم يسـتولِ عـلى السـلطة ولم يصطـفّ مـع أي فصيـل بعينـه. فقـد كان يريـد إقامـة دولـة دسـتورية قويـة يمكنهـا اسـتعادة النظـام وإعـادة الجيـش إلى الثكنـات. وناوَرَ الفصائـل المختلفـة حتـى أقنعهـا بـأن ترشـيحه هـو الحـل الأفضـل لإزالـة مخاوفهـا. وقـام الرئيـس رينيـه كـوتي بدعـوة ديغـول ليصبـح آخـر رئيـس وزراء في الجمهوريـة الرابعـة. فوضـع ديغـول دسـتورًا جديـدًا وحـدد رؤيتـه لفرنسـا: إصـلاح دسـتوري، وحـل القضايـا الاسـتعمارية، وصياغـة اسـتراتيجية عسـكرية ودبلوماسـية قويـة، وحماية هذه الاستراتيجية ضد الحلفاء، خصوصًا الولايات المتحدة الأمريكية.

- يلخّـص الكتـاب نهـج شـارل ديغـول الاسـتراتيجي تجـاه الجزائـر وجهـوده لإعـادة صياغـة الحكـم الفرنـسي والعلاقـات الاسـتعمارية. فقـد حـدد ديغـول ثلاثـة عوامـل رئيسـية لاسـتعادة الاسـتقرار، هـي: تغـيّر النظـام السـياسي الفاقـد للمصداقـة، واستعادة مبدأ الطاعة العسكرية، ووضع نفسه في موضع وسيط التغيير.

- عندمـا تـولى ديغـول منصبـه، كان لا بـد مـن تحويـل غموضـه التكتيـكي الأوّلي إلى خطـة اسـتراتيجية. وكانـت الإدارة الفرنسـية المعقَّـدة في الجزائـر والحـرب الدائرة قـد حتّمـت إحـداث تحـوّل تدريجـي، وليـس تغيـرات مفاجئـة. وأدى التـزام الجيـش بالحفـاظ عـلى الجزائـر الفرنسـية إلى وصولـه إلى السـلطة، وكان يعتقـد أن إرجاع الجيش إلى مبادئ السياسة الوطنية يتطلب عملية تدريجية.

- أدخل ديغول مفهوم «المجتمع الفرنسي» لمعالجة الجدالات الدستورية بين القادة الأفارقة. ويمكن للمستعمرات الانضمام إلى هذا المجتمع، أو الاحتفاظ بروابط مع فرنسا، أو اختيار الاستقلال الفوري. واختار معظمها البقاء في المجتمع الفرنسي، ما عزّز النفوذ الفرنسي. وانخرط ديغول في حملة عبر القارات في عام 1958 لتأمين الدعم الأفريقي لهذا المفهوم.

- في عام 1959، حدد ديغول خيارات الجزائر على التلفزيون، وهي: الاستقلال، و»الفرْنَسة» (الاندماج)، وحكومة يقودها الجزائريون بمساعدة فرنسية (مشاركة). وكان يفضِّل الخيار الثالث، مع الاعتراف بإمكانية الانفصال الكامل للجزائر. وواجَهَ معارضة من المستعمرين الفرنسيين وكابَدَ أحداثًا مثل متاريس الجزائر العاصمة، ومحاولة انقلابية في عام 1961.

- ظهرت قيادة ديغول الكاريزمية عندما أمر بإزالة المتاريس وهدَّأ الوضع. وفي عام 1962 تم التفاوض سرًّا على اتفاقيات إيفيان بين الوزراء الفرنسيين وممثِّلي جبهة التحرير الوطني الجزائرية، ما أدى إلى استقلال الجزائر. وحظيت الاتفاقيات بالتأييد في استفتاء أُجري في فرنسا والجزائر، ولكن حقوق المعادن الموعودة لم تتحقق.

- في سبتمبر 1958، اتخذ شارل ديغول خطوة مهمة في إعادة صياغة العلاقات الفرنسية-الألمانية، وذلك بعد ثلاثة أشهر فقط من تولّيه منصب رئيس الوزراء. فمن الناحية التاريخية، كانت فرنسا وألمانيا عدوَّيْن تقليديين، ولكن ديغول ابتدر تغييرًا بتوجيه دعوة إلى المستشار الألماني، كونراد أديناور، لزيارة سريعة غير مسبوقة في مقره «لا بواسّوري» في كومونة كولومبي لي دي زغليز.

- سعى ديغول إلى تغيير كامل تجاه العداوة التاريخية بين بلديهما، بدلًا من التركيز على اتفاقيات معينة. واقترح تقديم الدعم الفرنسي لإعادة تأهيل

ألمانيا وسعيها لامتلاك هوية أوروبية. وفي مقابل ذلك، طالَب ألمانيا بقبول الحدود الأوربية القائمة، وإنهاء سعي ألمانيا إلى الهيمنة على أوروبا، بالإضافة إلى شروط أخرى، مثل حسن النية في العلاقات مع الشرق، ونبذ الأسلحة الذرية، والتمهل بشأن إعادة توحيد ألمانيا.

- كانت نظرة ديغول إلى العلاقات الدولية مختلفة اختلافًا ملحوظًا بسبب تجارب فرنسا التاريخية، فقد رأى أن التعاون بين الدول شيء غير طبيعي؛ إيمانًا منه بأن المنافسة أمرٌ متأصِّل. وعلى الرغم من أن واشنطن سعت إلى إقامة كيان تحالفي لتشجيع العمل المشترَك والحد من المبادرات المستقلة، فقد أكد ديغول أهمية الحفاظ على حرية العمل الفرنسية والهوية الفرنسية، حتى داخل أوروبا الموحَّدة.

- كان موقف ديغول الحازم نتاجًا للثقة الشخصية، والوعي التاريخي، وضعف فرنسا. وقد تشكّك فيما إذا كان بإمكان الولايات المتحدة الأمريكية الالتزام بالدفاع الأوروبي إلى ما لا نهاية، خصوصًا فيما يتعلق بالأسلحة النووية. ورفض اقتراحات الانسحاب المتناسق للقوات الأمريكية من أوروبا الوسطى؛ لأن ذلك سيترك فرنسا عُرضةً للخطر.

- فور تولّي ديغول منصبه، أعطى الأولوية لتطوير البرنامج النووي العسكري الفرنسي، واقترح إعادة تنظيم استراتيجية حلف الناتو النووية، داعيًا إلى ترتيب ثلاثي بين فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية؛ بحيث يمنح هذا الترتيب كل دولة حقّ النقض بشأن استخدام الأسلحة النووية ما لم تكن ردًّا على هجوم مباشر، وتقوم إدارة هذا الترتيب بوضع استراتيجية مشتركة لمناطق خارج أوروبا، إلا أن هذا الاقتراح لم يجد أيَّ ردٍّ من أيزنهاور وماكميلان.

- سعى ديغول إلى بناء رادع نووي مستقل لتقوية مكانة فرنسا في العالم. وكان يؤمن بأنه من المهم لفرنسا أن تكون قوية وأن تحافظ على سيادتها،

خصوصًا في مواجهة التهديدات المحتمَلة. وبحلول عام 1968، أجرت فرنسا أول اختبار نووي حراري لها، الأمر الذي عزّز مكانتها كقوة نووية مكتملة.

- أدى ظهور الأسلحة النووية إلى تغيير الأهداف التقليدية للتحالفات، فالدول التي تعتمد على الضمانات النووية، مثل تلك التي تعتمد على الضمانات الأمريكية، لم تجد حاجة إلى نشر قوات إضافية وجعلت من مصداقية هذه الضمانات محورًا لأمنها. واجتاز ديغول حالات الغموض وانعدام اليقين في هذا المشهد الجديد.

- سعى ديغول إلى إنشاء رادع نووي فرنسي مستقل؛ لأنه يؤمن بأن القيادة تتطلّب استخلاص الهدف الوطني من علاقات القوة والسياق التاريخي. وكان رأي ديغول في الالتزامات الدولية، أنها التزامات طارئة؛ بسبب عدم القدرة على التنبؤ بالأحداث والظروف المتغيِّرة.

- بحلول أواخر ستينيات القرن العشرين، نجح شارل ديغول في إحياء فرنسا وإنعاشها، وأعاد مؤسساتها، وجعل منها لاعبًا رئيسيًّا في نظام أوروبي جديد. لقد مارس أسلوبًا في فن الحكم يُذكّر بأسلوب الكاردينال ريشيليو في القرن السابع عشر. وبعد أن أمضى عقدًا في منصب الرئاسة، بدأت حماسته تضعف، وظهرت تكهنات عن استقالته. وفي عام 1968 كانت الاحتجاجات والإضرابات الواسعة الانتشار تبدو نذيرًا بنهاية رئاسته.

  - وبرغم أنه ربما كان متعجرفًا وباردًا، فإن حدسه الاستراتيجي جعله متميزًا. وبرغم صدامات مع أقران من قبيل تشرشل وروزفلت وكينيدي، فإن تقييمات ديغول بشأن المسائل الاستراتيجية الرئيسية اتسمت بالصواب دائمًا. ويتسم إرث ديغول بأنه مصدر إلهام أكثر منه عقائد جامدة، فهو دليل على أن القادة أصحاب الرؤية يشكّلون التاريخ من خلال دورهم كقدوة. ولا تزال السياسة الخارجية الفرنسية متأثرة به، ما يجعل إرثه استثنائيًّا.

- كان لديغول أهداف رؤيوية، لكنه كان يستخدم أسلوب رجل الدولة المتأني. وكان كثيرًا ما يتصرف من طرف واحد، وكان يفاوض على تعديلات على أهدافه وليس تغييرات عليها. وكان تشرشل يسلِّم بإمكانات ديغول القيادية، وكان يدعمه برغم الصراعات. وكان تشرشل يعتبر القيادة عملية تاريخية، في حين أن ديغول كان يعتبرها واجبًا يتولد من عبء العظمة. كلاهما أنقذ مجتمعه، بيد أن أسلوب تشرشل نبع من التقاليد، في حين أن ديغول كان متميزًا ويستند إلى المبادئ.

- يبرز شارل ديغول كشخصية متفردة في التاريخ؛ حيث يتميز بالانعزال والشجاعة والالتزام بقيمه ورؤيته. وبرغم انفصاله الظاهر، فإنه كان يحمل مخزونًا من العاطفة واللطف، يظهر بوضوح في علاقته مع ابنته المعاقة «آن». فقد كان وجود «آن» مصدر إلهام بالنسبة إليه، وقد تأثر بوفاتها أشد التأثر.

الفصل الثالث: ريتشارد نيكسون: استراتيجية التوازن

- كان ريتشارد نيكسون الرئيس الأكثر مثارًا للجدل في التاريخ الأمريكي، والرئيس الوحيد الذي اضطر إلى الاستقالة من منصبه. كان له تأثير كبير على السياسة الخارجية أثناء فترته وفي أعقابها، كرئيس أعاد تشكيل نظام عالمي فاشل في ذروة الحرب الباردة.

- أنهى نيكسون التورط الأمريكي في فيتنام، ورسَّخ مكانة الولايات المتحدة، بوصفها القوة الخارجية المهيمنة في الشرق الأوسط، وفرض هيكلًا ثلاثيًّا على الحرب الباردة الثنائية القطب سابقًا من خلال الانفتاح على الصين، ما قوَّض في نهاية المطاف المركز الاستراتيجي للاتحاد السوفيتي.

- شغل هنري كيسنجر منصب مستشار الأمن القومي لنيكسون في الفترة من عام 1968 إلى عام 1974؛ حيث شارك عن قرب في قيادته وما اتخذه من قرارات. وفي الأشهر السابقة على الانتخابات الرئاسية لعام 1968، بدأت التحديات التي تواجه رئاسته تتضح في ثلاثة مسارح استراتيجية، هي: أوروبا، والشرق الأوسط، وشرق آسيا.

- عندما جاء نيكسون إلى الحكم في عام 1969، كانت الحرب الباردة قد دخلت مرحلة النضج الكامل. وكان الصراع الداخلي حول فيتنام يقترب من ذروته؛ حيث تعالت نداءات في بعض الأوساط من أجل الانسحاب الأمريكي على المستويين العسكري والسياسي. وكانت الولايات المتحدة والاتحاد

السـوفيتي عاكفَـيْن عـلى نـشر صواريـخ ذات أحـمال أكـبر وأكـثر دقـة وأبعـد مدى (عبر القارات).

- بحلـول أغسـطس 1969، احتـل الاتحـاد السـوفيتي، ومعـه دول أوروبـا الشرقيـة التـي تـدور في فلكـه، تشيكوسـلوفاكيا. وفي ألمانيـا، اسـتمر التهديـد السـوفيتي لبرلـين الغربيـة؛ حيـث لاح مـن حـين لآخـر مـن خـلال تهديـد موسـكو بتضييـق الخنـاق عـلى المدينـة المحـاصَرة. وبـدأت أوروبـا واليابـان، وكلتاهـما تعافـت مـن دمـار الحـرب تحـت المظلـة الأمنيـة للولايـات المتحـدة، منافسـةً الولايـات المتحـدة اقتصاديًّـا واعتـماد تصوراتهـما الخاصـة، والمتباينـة أحيانًـا، للنظـام العالمـي الناشـئ. وفي الوقـت نفسـه أصبحـت جمهوريـة الصـين الشـعبية خامـس بلد يمتلك أسلحة نووية.

- في هـذه الأثنـاء، واجـه نيكسـون وضعًـا متأزمًـا في الـشرق الأوسـط. وبرغـم المكانـة التاريخيـة البـارزة لـكل مـن فرنسـا وبريطانيـا في الـشرق الأوسـط، فـإن كلتيهـما أصبحـت بالتدريـج أقـلَّ قـدرة عـلى بسـط قوتهـا هنـاك بعد اسـتنزافهما في حربـين عالميتـين. في البدايـة، شـهدت المنطقـة ثـورات محليـة أجَّجتهـا حـركات معاديـة للاسـتعمار، تحولـت فيـما بعـد إلى صراعـات أكـبر داخـل العـالم العـربي، وبين الدول العربية ودولة إسرائيل.

- إضافـةً إلى جميـع هـذه الشـواغل، تزامَـنَ وصـول نيكسـون إلى الحكـم مـع المـأزق الدمـوي في فيتنـام. وكانـت إدارة جونسـون السـابقة قـد أرسـلت 500 ألـف جنـدي أمريـكي إلى فيتنـام، في حـين أن 50 ألفًـا آخريـن كانـوا في الطريـق وقـت تنصيـب نيكسـون. وكان عـلى نيكسـون إخـراج الولايـات المتحـدة مـن حـرب لا يمكـن حسـمها، وذلك وسط اضطرابات داخلية لم تشهدها الولايات المتحدة منذ الحرب الأهلية.

- كان الموقـف الـذي يواجهـه نيكسـون غـير مسـبوق مـن حيـث إنـه للمـرة الأولى ظهـرت نخبـة وطنيـة تؤمـن بـأن الهزيمـة في الحـرب حتميّـة مـن الناحيـة

الاستراتيجية ومرغوبة في الوقت نفسه من الناحية الأخلاقية. وكان هذا الاعتقاد يمثل انهيار الإجماع القائم منذ قرون، الذي مفاده، أن المصلحة القومية تمثل غاية مشروعة، بل وأخلاقية.

- من بعض النواحي، تتزامن هذه المجموعة من المعتقدات مع عودة اتجاه انفصالي سابق لا يُعتبر بمقتضاه «تورّط» أمريكا في الأزمات الخارجية أمرًا غير مرغوب فيه من أجل رفاه البلد فحسب، وإنما أمرٌ يقوّض شخصيتها أيضًا. فقد كانت هذه النزعة الانعزالية الجديدة تقوم على أن أمريكا نفسها أصبحت غارقة في الفساد؛ بحيث إنها لم تعدْ قادرة على العمل كمرشد أخلاقي في الخارج. ولم يكن أنصار هذا الموقف ينظرون إلى مأساة فيتنام ضمن إطار جيوسياسي، ولا على أنها صراع أيديولوجي، وإنما كمبشِّر بتنفيس وطني من شأنه إطلاق تحوّل طال انتظاره نحو الداخل.

- كان نيكسون يؤمن بأن أمريكا تقع عليها مسؤولية خاصة للدفاع عن قضية الحرية على الصعيد الدولي، وخصوصًا حرية حلفاء أمريكا الديمقراطيين. وكان مدفوعًا لدى السعي إلى إنهاء الصراع في فيتنام، الذي ورثه، بالأثر المحتمَل للانسحاب الأمريكي على مصداقية البلد كحليف، وكذلك كقوة وحضور في العالم كله.

- اعترض نيكسون على الافتراضات الأمريكية السائدة في مجال السياسة الخارجية. التي كانت مدرسة فكرية في ذلك الوقت، كما هي الحال الآن، ترى أن الاستقرار والسلام هما الحالة الطبيعية للشؤون الدولية، في حين أن الصراع هو نتيجة إما لسوء الفهم أو للشر. وبمجرد هزيمة القوى العدائية على نحو حاسم، يعود التناغم أو الثقة المتأصلة إلى الظهور. وكان نيكسون يَعتبر السلام حالة من التوازن الهشّ والفضفاض بين القوى العظمى، وهو توازن يشكّل بدوره عنصرًا أساسيًّا في الاستقرار العالمي.

- سعى نيكسون إلى استعادة مفهوم توازن القوى، واعتبر أن المصلحة القومية هي الهدف الرئيسي الذي يجب أن تسعى الاستراتيجية الوطنية والسياسة الخارجية إلى تحقيقه. وانطلاقًا من مبدأ أن المصالح القومية كثيرًا ما تكون متضاربة ولا تنطبق عليها دائمًا نتيجة «الكل رابح»، فقد كان يعتبر أن مهمة رجل الدولة تكمن في استبانة تلك الخلافات وإدارتها، وهو ما يمكن تحقيقه إما بتخفيف حدتها أو، لدى الاقتضاء وكملاذ أخير، بالتغلب عليها بالقوة.

- كانت سياسة نيكسون الخارجية تقوم على توجُّه ذي ركنَيْن تجاه الأعداء: أولهما، هو بناء القوة والأحلاف الأمريكية، وخصوصًا التحالف الأطلسي. والثاني، هو الحفاظ على قنوات الحوار مع الأعداء، مثل الاتحاد السوفيتي والصين، من خلال «حقبة المفاوضات».

- إن الجمود الدبلوماسي بين كبار القادة يُعقِّد أي ضبط ضمن الحوكمة الداخلية لكلا الجانبين، وهو سبب آخر يستدعي أن تُعالَج المسائل التفصيلية على المستويات الأدنى؛ حيث تكون الخبرة الفنية أكثر تركيزًا ويكون التوفيق أقلَّ تهديدًا على المستوى الشخصي. وكانت قوة نيكسون كرجل دولة تكمن في طرفَيْ الاستراتيجية الجيوسياسية؛ أي القوة التحليلية في التصميم، والجرأة العظيمة في التنفيذ. كان أداؤه يبلغ ذروته في الحوارات بشأن الأهداف الطويلة المدى وفي جهوده لإقناع نظيره في المسائل ذات البُعد الاستراتيجي.

- سعى نيكسون، من خلال مزيج من الدبلوماسية والضغط، إلى إقناع موسكو بوقف دعمها لهانُوي في مقابل تنازلات تقدّمها إدارته للفيتناميين الشماليين، ربما عن طريق موسكو. وعلى نحو متزامن، كانت توضع خيارات من أجل التصعيد العسكري، تتألف أساسًا من فرض حصار واستئناف القصف في إطار عملية Duck Hook. وإذا رفضت موسكو العرض، كان نيكسون سيسعى لفرضه بالقوة العسكرية.

- مـن ناحيـة أخـرى، كان نيكسـون يـرى أن عـلى الولايـات المتحـدة «تفـادي السياسـات مـن النـوع الـذي جعـل الـدول الآسـيوية شـديدة الاعتـماد علينـا؛ بحيـث إننـا ننجـرّ إلى صراعـات مـن قبيـل الـصراع الـذي نخوضـه في فيتنـام». وأصبحـت تلـك النظريـة تُعـرف باسـم «عقيـدة نيكسـون» التـي تتضمـن ثلاثـة مبـادئ رئيسـية، هـي: (1) التـزام الولايـات المتحـدة بجميـع التزاماتهـا التعاهديـة. (2) توفـير الـدرع الواقـي إذا هـددت أيّ قـوة نوويـة حريـة أيّ بلـد حليـف أو بلـد تَعتـبر الولايـات المتحـدة أن بقـاءه أمـرٌ حيـوي بالنسـبة إلى أمـن الولايـات المتحـدة أو أمـن المنطقـة كلهـا. (3) في الحـالات التـي تنطـوي عـلى أشـكال أخـرى مـن الاعتـداء (أي الاعتـداء بالأسـلحة التقليديـة مـن جانـب قـوى غـير نوويـة)، توفـير المسـاعدة العسـكرية والاقتصاديـة عند الطلب.

- في خضـم تحقيقـات (ووترجيـت)، لم يكـن الجمهـور المُجْهَـد ليدعـم صراعـات إضافيـة في آسـيا. فقـد قلّـص الكونغـرس المسـاعدات الاقتصاديـة والعسـكرية إلى جنـوب فيتنـام بواقـع النصـف. وأشـعلت حـرب فيتنـام انقسـامًا داخليًّـا في المجتمـع الأمريـكي دامـت آثـاره إلى اليـوم. فقـد أشـعل الـصراع نوعًـا مـن الجدل العام لا يركّز على الجوهر بقدر ما يركّز على الدوافع والهويات السياسية.

- تكمـن أهميـة نيكسـون كرجـل دولـة في توجُّهـه الجيوسـتراتيجي أساسًـا. فبعـد الرحلـة التـي قـام بهـا إلى أوروبـا في أوائـل عـام 1969، اسـتهلّ جولتـه بهجـوم دبلومـاسي لإضعـاف سـيطرة موسـكو عـلى توابعهـا في أوروبـا الشرقيـة مـن خلال جذبهم إلى مدار الدبلوماسية الأمريكية.

- كان هـدف نيكسـون الاسـتراتيجي يكمـن في زيـادة التكلفـة التـي سـيتكبدها السـوفييت مـن جـراء احتفاظهـم بإمبراطوريتهـم الأوروبيـة؛ بحيـث يسـتدعي استمرارهم في ذلك تحويل الأموال والانتباه عن أهداف رئيسية أخرى.

- على مدى الفترة المتبقية من رئاسة نيكسون، أُقيمت اتصالات مباشرة مع موسكو من خلال ما سُمِّيَ «القناة»، وهي قناة بين كيسنجر ودوبرينين (السفير السوفيتي لدى الولايات المتحدة) أُنشئت بين نيكسون والقيادة السوفيتية. وتبيّن أن أحد المواضيع الرئيسية هو أثر المخزونات الكبيرة من الأسلحة النووية لدى البلدين على النظام العالمي وكيفية تجنّب وقوع كارثة عالمية، سواء على نحو استباقي أو ضمن صراع متفاقِم بينهما.

- أصبحت مسألة مبكرة بالنسبة إلى نيكسون تتمثل فيما إذا كان يجب المُضيُّ في مفاوضات الحد من التسلح مع السوفييت من الأساس. ولم يوافق نيكسون في نهاية المطاف على إطلاق مفاوضات الحد من الأسلحة الاستراتيجية مع السوفييت إلا بعد أن استقر على استراتيجية بخصوص فيتنام أثناء قمة موسكو في عام 1972. وتمخّضت القمة عن أول اتفاق شامل للحدّ من الأسلحة الاستراتيجية خلال الفترة النووية. وقضى الاتفاق بقصر الدفاع بالصواريخ البالستية على موقعين (معاهدة حظر الأسلحة البالستية)، وبوقف أعداد الأسلحة الاستراتيجية الهجومية عند المستويات القائمة (سولت 1)، وأرست سبلًا لمعالجة الأحداث التي تطرأ في البحر والحوادث النووية.

- كتب نيكسون، قبل وصوله إلى سدة الرئاسة في عام 1967، مقالة في مجلة *Foreign Affairs*، أشار فيها إلى عدم إمكانية ترك الصين إلى الأبد خارج الأسرة الدولية، وأكد أن السلام العالمي سيستفيد إذا أمكن أن تكبح الصين دعمها لحركات التمرد حول العالم وأن تقيم يومًا علاقات دبلوماسية مع الغرب. وبعد سلسلة من الاتصالات السرية عن طريق مبعوث من واشنطن إلى العاصمة الباكستانية إسلام أباد، ومن ثم من باكستان إلى بكين، مع اتباع الصين المسار نفسه في الرد، وُجِّهت دعوة إلى نيكسون لزيارة الصين في عام 1971 لمناقشة مسألة تايوان ومسائل ملحّة أخرى.

- تضمَّـن بيـان شـنغهاي، الـذي صـدر في نهايـة زيارتـه، اتفاقًـا بـين الطرفـين يقـضي بمعاملـة تايـوان باعتبارهـا مسـتقلة في المسـتقبل المنظـور. ويقـرُّ الطرفـان بمبـدأ الصـين الواحـدة، وتُحجـم الولايـات المتحـدة عـن إصـدار بيانـات توحـي بوجـود بلدين في الصين، ولا يسعى أيٌّ من الطرفين إلى فرض تفضيلاته.

- وعـلى مـدى عشريـن عامًـا بعـد زيـارة نيكسـون، اتّبعـت الولايـات المتحـدة والصـين سياسـة تعاونيـة واسـعة النطـاق لاحتـواء الاتحـاد السـوفيتي. وخـلال تلـك الفـترة، شـمل التعـاون بـين الولايـات المتحـدة والصـين المجـال الاسـتخباراتي، وإن كان عـلى نطـاق محـدود. ومثَّـل بنـاء علاقـة تعـاون مـع الصـين لمواجهـة الاتحـاد السـوفيتي مصلحـة أمريكيـة طاغيـة أثنـاء الحـرب البـاردة. أمـا اليـوم، فـإن أي سياسـة أمريكيـة تجـاه الصـين يجـب أن تراعـي اقتصـاد الصـين الهائـل، الـذي يقـترب مـن الاقتصـاد الأمريـكي، وقوتهـا العسـكرية المتصاعـدة، ومهاراتهـا الدبلوماسـية التـي تتجـلى مـن خـلال الحفـاظ عـلى آلاف السـنين مـن الثقافـة المتميزة.

- وفي الوقـت الـذي بـدأ فيـه الاتحـاد السـوفيتي يستكشـف سـبل التعايـش مـع الولايـات المتحـدة، كانـت المسـاعدات والأسـلحة تتدفـق مـن موسـكو إلى الـدول العربيـة الحليفـة لهـا، مـا زاد مـن احتـمالات وقـوع مواجهـة جديـدة. وفي عـام 1972، واصـل الرئيـس المـصري أنـور السـادات اتبـاع اسـتراتيجية سـابقه القائمـة عـلى الاعتـماد عـلى السـوفييت لجعـل الولايـات المتحـدة تضغـط عـلى إسرائيـل للانسـحاب مـن سـيناء. لكـن في ذلـك الصيـف، طـرد السـادات عـلى نحـو مفاجـئ أكـثر مـن 20 ألـف مستشـار عسـكري سـوفيتي كانـوا قـد نُـشروا في مـصر، وأمـر بالاسـتيلاء عـلى منشـآتهم ومعداتهـم الثقيلـة. وفي فبرايـر 1973، أرسـل مستشـاره الأمنـي حافـظ إسـماعيل إلى البيـت الأبيـض لاستكشـاف موقف أمريكا إزاء مفاوضات جديدة.

- أبلغ نيكسون حافظ إسماعيل أن الولايات المتحدة ستطلق مجهودًا جديدًا من أجل السلام بعد الانتخابات الإسرائيلية في نوفمبر، لكن بالنسبة إلى السادات كان ذلك احتمالًا ينطوي على قدر كبير من عدم اليقين. وفي 6 أكتوبر، المصادف ليوم الغفران، وهو أقدس يوم في الرزنامة اليهودية؛ حيث يكون اليهود كافة في الكنيس، أطلق السادات مفاجأة صادمة لكل من إسرائيل والولايات المتحدة. فقد عَبَرت القوات المصرية قناة السويس، وتقدّمت القوات السورية في مرتفعات الجولان. ولم يكن الإسرائيليون، وكذلك الأمريكيون والعالم، مدركين للهجوم المفاجئ أو مستعدين له.

- في هذه الأثناء، كان نيكسون يتعامل مع فضيحة (ووترجيت) ونتائجها. واضطلعت الولايات المتحدة، برغم هذا المسلسل من الكوارث السياسية الداخلية، بدور رئيسي في التوصل إلى وقف لإطلاق النار وإطلاق عملية سلام في الشرق الأوسط دامت على مدى العقود القادمة. ولم يَتَخلَّ نيكسون مطلقًا عن الأهداف الاستراتيجية الرئيسية، وهي مواصلة اتباع دبلوماسية إبداعية مع الدول العربية، والحفاظ على أمن إسرائيل، وإضعاف موقف الاتحاد السوفيتي، والخروج من الحرب بدبلوماسية أمريكية مستدامة تعمل نحو تحقيق السلام.

- في النصف الثاني من القرن العشرين، بدأت الحضارات الآسيوية التقليدية، مثل الهند والصين، الدخول في النظام العالمي كقوى عظمى ذات جدارة؛ حيث أبدت قدرة على تحدي التوازن العالمي على نحو مستقل. واندلعت أزمة سياسية في باكستان جراء المطالب البنغالية باستقلال شرق باكستان، وهي مطالِب أبرزتها نتائج الانتخابات العامة التي أُجريت في ديسمبر 1970. وأدّت الأزمة اللاحقة، التي جرَّت شبه القارة إلى صراع استمر من مارس إلى ديسمبر 1971، إلى حرب بين الهند وباكستان، وانتهت بتحوّل الجناح الشرقي من باكستان إلى دولة بنغلاديش الوليدة.

- وسرعان ما أدت الاضطرابات الإقليمية أساسًا في جنوب آسيا بين باكستان والهند إلى تدخُّل الولايات المتحدة والصين وروسيا. وبذلك مثّلت المشكلة المستجِدَّة في شرق باكستان تطورًا غير مسبوق؛ حيث تحولت إلى أزمة تتدخل فيها ثلاث قوى عظمى تمتلك أسلحة نووية، جميعها كمتنافسين متساوين وذوي سيادة. وكان نيكسون واقعًا تحت ضغط داخلي كبير للوقوف بجانب الهند التي كان النظام الديمقراطي لديها يحظى بإعجاب واسع النطاق.

- مثّلت الأزمة في بنغلاديش خطوة رئيسية في تحوّل الحرب الباردة من هيكل جامد ثنائي القطب إلى توازن عالمي أكثر تعقيدًا يضم آسيا كعنصر صاعد. وبفضل اجتماع الدبلوماسية والتهور وضبط النفس وممارسة كل منها في اللحظات المناسبة، تحولت احتمالات وقوع حرب عالمية بسبب بنغلاديش من شيء ممكن إلى شيء غير متصوَّر. وفي نهاية المطاف، جنى كل طرف مشارِك في الأزمة نصيبًا كافيًا (أو خسر قليلًا في حالة باكستان)؛ بحيث إن البلدان الكبرى لم يُخلَّ أحدها بالترتيب المتوصَّل إليه على مدى عقود لاحقة.

- كان نيكسون يعمل انطلاقًا من الاعتقاد بأن السلام هو النتيجة الهشة والعابرة على نحو خطير للعمل الدؤوب للحنكة السياسية في عالم يكاد فيه التوتر والصراع أن يكونا قدرًا محتومًا. وتجلّت رؤيته للسلام أيضًا في الطريقة التي أعاد بها تشكيل النظام العالمي من خلال دمج التعددية القطبية في النظام العالمي من خلال الانفتاح على الصين، وفي الوقت نفسه السعي إلى تحقيق المصالح الأمريكية والاستقرار الشامل.

- كان نيكسون ناجحًا لبعض الوقت من خلال تعديل دور أمريكا، من الهيمنة المتعثرة إلى القيادة الإبداعية، لكن مأساة ووترجيت، مقترنةً بسقوط

سـايغون بعـد ذلـك بثمانيـة أشـهر، حالـت دون أن يحقـق نهجـه في مجـال السياسـة الخارجيـة التأثـير الـذي يسـتحقه عـلى التفكـير الأمريـكي. وفُهِـمَ أن مركـز أمريـكا الاسـتثنائي يُعـزَى إلى الممارسـة الحاذقـة والمحسـوبة لقوتهـا الكامنة بِقَدر ما يُعزَى إلى عزمها على تحقيق مبادئها التأسيسية.

- تتطلّـب إدارة النظـام العالمـي مراعـاة أمريكيـة دقيقـة للأحـداث المسـتجِدَّة والغامضـة في أحيـان كثـيرة. وهـي تتطلـب أيضًـا التحـلي بقـدرة عـلى تحديـد الأولويـات الاسـتراتيجية. وعلينـا أن نسـأل أنفسـنا: مـا هـي التهديـدات والفـرص التـي تتطلـب حلفـاء؟ وأيُّهـا كبـيرة الأهميـة بالنسـبة إلى مصالـح أمريـكا وأمنهـا القومـي؛ بحيـث إننـا سـنتعامل معهـا وحدنـا عنـد الـضرورة؟ وعنـد أي مرحلـة يقـوّض الالتـزام المتعـدد الأطـراف القـوة، ومتـى يـؤدي إلى مضاعفـة الأصـوات المعارِضـة؟ ومـن أجـل تحقيـق هـدف السـلام، لا بـد أن تفسـح الأشـكال التصادمية المجال للمنافسة لقدر من المشروعية المشتركة.

الفصل الرابع: أنور السادات: استراتيجية التجاوز

- كانت انتصارات أنور السادات - رئيس مصر ما بين عاميْ 1970 و1981 - مفاهيميةً بطبيعتها، وقد أدى اغتياله إلى اختزالها. ولكن ورثته الإقليميين - وهم قليلو العدد - لم يعتمدوا من جهوده سوى الجوانب العملية، وليس الرؤيوية، ولم يتحلوا مثله بالشجاعة الراسخة التي بعثها فيهم. ونتيجة لذلك، فإن إنجازه العظيم - ألا وهو إرساء السلام مع إسرائيل - لم يَعُدْ يتذكره إلَّا قليلون، كما أن غايته الأخلاقية الأعمق يكاد الجميع يتجاهلونها، رغم أنها هي التي شكلت الأساس لما جاء بعدها، مثل اتفاقات أوسلو بين الإسرائيليين والفلسطينيين، واتفاق السلام بين إسرائيل والأردن، والاتفاقات الإبراهيمية لعام 2020.

- لقد طرح السادات مفهوم السلام، وهو ما يزال حُلمًا لم يخرج إلى حيّز الوجود. ولا توجد شخصية معاصرة أخرى في الشرق الأوسط كان لديها طموحات مشابهة، أو أبدت القدرة على تحقيقها. إن مهمة السادات الرئيسية - سواء قبل رئاسته أو أثناءها - جاءت تعبيرًا عن تطلع الأمة المصرية إلى تحقيق الاستقلال الدائم.

- مما تجدر الإشارة إليه، أن السادات، كرئيس لمصر، لم يعمل تحت راية واحدة شأن أغلب معاصريه الإقليميين من القادة الوطنيين المخلصين في سعيهم لتوحيد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. بل إن السادات - بعد

تحليل توجهاتهم إزاء النظام الدولي - تحوّل كُلّيّةً نحو أساليب الدبلوماسية كما هي ممارسة في الغرب، بمعنى أن استراتيجيته لتحقيق السيادة الوطنية كانت مقترنةً بالاصطفاف مع الولايات المتحدة، وقد جعل لها الأولوية على اتجاهيْ القومية العربية وعدم الانحياز، اللذيْن كانا يطغيان على العالميْن العربي والإسلامي في ذلك الوقت.

- في فترة شبابه، بدأت ميوله الوطنية تتحول إلى فلسفة سياسية وشعور بالذات. كان يؤمن بمصر الإسلامية، وكان من أشد المعجبين بالشيخ حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، الذي كان يتخذ موقفًا صارمًا بشأن تحقيق الاستقلال الحقيقي. ومن ثم فإن مشاعر السادات المناهضة للبريطانيين قادته إلى طريق العنف الثوري، فأمضى فترات متقطعة في السجن ما بين عاميْ 1942 و1948، بسبب إدانته بتهمة التورط في اغتيال وزير المالية الموالي للبريطانيين آنذاك أمين عثمان.

- نتيجة لإقامة دولة إسرائيل في 14 مايو 1948، واعتراف الرئيس الأمريكي هاري ترومان الفوري بها، تدخلت الدول العربية المجاورة في الحرب الأهلية التي كانت دائرة بين العرب واليهود في فلسطين تحت الانتداب. وأعقبت ذلك فترة من الحروب المتقطعة دامت خمسة وعشرين عامًا.

- شكلت هزيمة مصر في حرب عام 1948 مأزقًا بالنسبة لجامعة الدول العربية؛ بسبب إخفاقها في التنسيق بين الجيوش الوطنية المتفرقة لأعضائها. كان قدامى حرب عاميْ 1948 و1949 - بمن فيهم الرئيسان المقبلان محمد نجيب وعبد الناصر - يؤمنان بأن الهزيمة سببها غياب الوحدة العربية. وقد أسفر ذلك الأمر عن بزوغ مشروع جديد للقومية العربية، يقوم على تكوين اتحاد عسكري بين الدول العربية، مهمته الأساسية مواجهة إسرائيل ومحاربة التأثير الغربي.

- عندما خرج السادات من السجن وانضم إلى مجموعة «الضباط الأحرار»، كان قد مر بمرحلة تحول كبير. فبدلًا من أن تفتر همته في حبسه الانفرادي، تولَّد عنده ما أسماه لاحقًا «قوة داخلية». صحيحٌ أنه ظل مخلصا للقضية الثورية، لكنه لم يَعُدْ يتقيد تَقَيُّدًا أعمى بأفكار زملائه، بل أصبح لديه القدرة على إعادة التفكير في معتقداته السابقة.

- بعد احتجاجات «السبت الأسود» في عام 1952، التي أفضت إلى تشكيل وحل ثلاث حكومات متتابعة، رأى الضباط الأحرار أن الموقف قد بلغ نقطة حاسمة، كان فيها الشعب مُتَحَفِّزًا والحكومة بائسة. وعلى أمل «تحييد البريطانيين»، عن طريق إقناع حليف بريطانيا الأمريكي بالأمر الواقع، بعث الضباط الأحرار برسالة إلى السفير الأمريكي بأن تحركًا كبيرًا أصبح وشيك الحدوث. وفي 23 يوليو 1952، قاموا بانقلاب ناجح ضد الملك فاروق، الذي اضطُر إلى التنازل عن العرش لمصلحة ابنه القاصر الملك فؤاد الثاني. وكان السادات هو من صاغ بيان تنازل الملك، وهو من أعلن انتصار الضباط عبر المذياع.

- عُيِّن مجلس وصاية لإدارة المملكة، كما جرت العادة في حالة الملوك القُصَّر. لكن السلطة الحقيقية كانت تكمن في يد مجلس قيادة الثورة الذي كان يرأسه آنذاك اللواء محمد نجيب. وفي عام 1953، قام مجلس قيادة الثورة بإلغاء المَلَكِيَّة، وأعلن النظام الجمهوري في مصر. وفي عام 1954، انتُخب جمال عبد الناصر رئيسًا، وأصبح السادات نائبًا للرئيس في عام 1969.

- أدت حرب الأيام الستة إلى مضاعفة إسرائيل أراضيها بأكثر من ثلاثة أمثالها، وتمكنت من نشر قواتها على الضفة الشرقية لقناة السويس، موجهةً بذلك إهانة إلى جيرانها العرب. حاول عبد الناصر رد اعتباره واستعادة مجد مصر السابق عن طريق شن حرب استنزاف ضد إسرائيل. لكن تورط مصر في

حـرب اليمـن، ثـم في حـرب الأيـام السـتة، ومـن بعدهـا حـرب الاسـتنزاف (التـي اسـتمرت حتـى عـام 1970)، كل ذلـك كان لـه أثـر تراكمـي تَمَثَّـل في استنــزاف موارد مصر، وأدى إلى زيادة اعتمادها على الاتحاد السوفيتي.

- بعـد وفـاة عبـد النـاصر في عـام 1970، وصـل السـادات إلى سُـدَّة الحكـم. وقـد تبـيّن لـه مـن حـرب الأيـام السـتة خطـورة تقديـم القوميـة العربيـة عـلى المصلحـة الوطنيـة، وأراد انضـمام مـصر الكامـل إلى النظـام العالمـي. كان توسـيع نطـاق التواصـل مـع العـالم العـربي مجـرد التـزام تكتيـكي، ولم يكـن التزامًـا حضاريًا.

- نظـرًا لطبيعتـه الهادئـة، والصداقـة التـي كانـت تربطـه بعبـد النـاصر، لم يكـن لـدى السـادات حافـز لبنـاء قاعدتـه السياسـية الخاصـة. وكان يمـضي الجـزء الأكـبر مـن وقتـه في التأمـل والصـلاة أكـثر مـن الوقـوف عـلى منصـات الخطابـة. وكان هنـاك الكثـير مـن المصريـين يعتقـدون أن السـادات لـن يكـون أكـثر مـن مجـرد قائـد انتقـالي، بـل إن زمـلاءه في مجلـس قيـادة الثـورة كانـوا يتصـورون أيضًـا أن التحكـم فيـه أمـر سـهل. وأدرك السـادات أن عليـه، قبـل كل شيء، ترسيخ مكانته.

- في غضـون سـتة أشـهر مـن انتخابـه، اتخـذ السـادات عـددًا مـن القـرارات الفرديـة التـي تتناقـض مـع آراء مـن كانـوا يسـعون إلى معارضتـه. فقـد أصـدر مرسـومًا بإلغـاء مصـادرة الممتلـكات الخاصـة، وأعطـى تلميحـات بإمكانيـة إقامـة سـلام مـع إسرائيـل، وأعلـن عـن قيـام اتحـاد بـين كل مـن مـصر وسـوريا وليبيـا. هـذه التحـركات الجريئـة أحدثـت قلقًـا لـدى كل مـن رئيـس الـوزراء السـابق عـلي صـبري، ونائـب رئيـس الـوزراء السـابق شـعراوي جمعـة، اللذيْـن صُعقـا مـن تحـركات الرئيـس الجديـد خـارج نطـاق ، وتَوَجَّسـا مـن تراجـع قوتهـما داخـل مجلـس الأمـة، فشرعـا في التخطيـط لانقـلاب عسـكري. وفي غضون

أربع وعشرين ساعة، وفيما أصبح يُعرف لاحقًا باسم «ثورة التصحيح»، ألقى السادات معظم المتآمرين في السجن، وأُحيل واحد وتسعون منهم للمحاكمة. صحيحٌ أن هذا الحزم لم يكن واضحًا في المراحل الأولى من مشوار السادات، لكنه بعد ذلك أصبح السمة المميزة لرئاسته.

- رسخت ثورة التصحيح سلطة السادات، لكنه في سبيل الحصول على الشرعية الشعبية، كان عليه الحفاظ على نهج عبد الناصر، مع تحويله في اتجاه جديد. وفي خطاب أمام مجلس الشعب، أكد السادات على التزامه بسياسة عبد الناصر الخارجية، وخصوصًا تجاه إسرائيل، وأضاف أنه سيسعى إلى تحرير الأراضي العربية من الاحتلال الإسرائيلي، وتعزيز الوحدة العربية. ورغم أن السياسة الداخلية لها دائمًا دور كبير في استعادة دور مصر التاريخي، فإن السادات كان مقتنعًا بأن قدرته على إحياء مصر المستقلة سيعتمد في النهاية على سياسته الخارجية.

- في يوليو 1972، اتخذ السادات خطوة جريئة، حيث طرد نحو 20 ألف مستشار عسكري سوفيتي من مصر دون إخطار موسكو. ومن خلال طرد الخبراء السوفييت من مصر يكون السادات قد أزال عقبة رئيسية أمام المشاركة الأمريكية في إرساء عملية سلام. ومع تراجع النفوذ السوفيتي، بدا أن المسار الدبلوماسي عن طريق أمريكا سيكون هو المسار الطبيعي في المرحلة القادمة. وفي فبراير 1973، وفي إطار تواصل السادات مع الولايات المتحدة في المراحل المبكرة، زار مستشاره للأمن القومي حافظ إسماعيل واشنطن. وأوضح حافظ إسماعيل معنى طرد السادات للسوفييت، ألا وهو أن مصر مستعدة لتطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة.

- كان السادات قد أعلن في مرحلة مبكرة، وتحديدًا في يوليو 1971، في جلسة للاتحاد الاشتراكي العربي، أنه لن يقبل «حالة اللاسلم واللاحرب». وفي عام

1972، قـرر تغيـير اسـتراتيجيته والتوجـه إلى الحـرب. وبحلـول خريـف عـام 1973، كان السـادات قـد أمـضى نحـو 18 شـهرًا في تهيئـة المشـهد الـدولي للـصراع الوشيك. وفي أكتوبر 1973، شنت مصر وسوريا هجومًا منسقًا على إسرائيل.

- تقدمـت مـصر نحـو عـشرة أميـال داخـل سـيناء، واسـتعادت بعـض الأراضي التـي كانـت إسرائيـل قـد اسـتولت عليهـا في عـام 1967. وفي الوقـت نفسـه، اخترقـت القـوات السـورية المواقـع الإسرائيليـة في مرتفعـات الجـولان. ومـع تقـدم الجيشـين العربيـين، المجهزيـن بأسـلحة سـوفيتية أساسًـا، تكبـدت إسرائيـل خسـائر كبـيرة في الأرواح والمعـدات، شـملت المئـات مـن الدبابـات والطائـرات. وتعهـد الرئيـس نيكسـون بتقديـم الدعـم لتعويـض الخسـائر الإسرائيليـة، وإرسال معونات طارئة على أساس يومي.

- قـرر السـادات التوغـل في سـيناء بفرقتـين مدرعتـين. وسـواء كان هـذا القـرار نابعًـا مـن الثقـة المفرطـة في قدراتـه العسـكرية بعـد عبـور القنـاة، أو مـن الرغبـة في تخفيـف الضغـط عـلى حليفـه الأسـد، فـإن المجازفـة بالخـروج عـن المناطـق التـي يغطيهـا حائـط صواريـخ «سـام» أسـفر عـن انتكاسـة كارثيـة. فـما بـين سـلاح الجـو الإسرائيـلي - بعـد أن تحـرّر مـن قيـود حائـط الصواريـخ - وبـين الهجـمات المضـادة بالدبابـات الإسرائيليـة، تـم تدمـير نحـو 250 مـن الدبابـات المصريـة. ومـن ثـم تمكّنـت الدبابـات الإسرائيليـة مـن صـد الجيـش الثالـث المـصري، ودفعـه إلى الانسـحاب باتجـاه القنـاة. وفي غضـون يومـين مـن تلـك المعركـة، وفي خضـم قتـال عنيـف، عـبرت القـوات الإسرائيليـة القنـاة إلى الناحيـة الأخـرى، وبـدأت في تدمـير مواقـع صواريـخ سـام السـوفيتية الصنـع عـلى الضفـة الغربيـة للقنـاة. وفي الوقـت نفسـه، توغلـت القـوات المدرعـة الإسرائيليـة، التـي زاد عددهـا عـلى عـشرة آلاف جنـدي، خلـف الجيش الثالـث، وهـددت بتطويقه، بل وهددت بالوصول إلى مشارف القاهرة.

- في 18 أكتوبر، ومع انسحاب فرقتين مصريتين من سيناء، دعا السادات فجأة إلى وقف لإطلاق النار. فمع تحول مجريات الحرب ضده، كان بحاجة إلى استراحة، بينما لا يزال يحتفظ بموطئ قدم في سيناء. وفي الوقت الذي التمس فيه وقف إطلاق النار، زعم أنه حقق «انتصارًا نفسيًا». فقد قال إن العدو فقد توازنه ولا يزال فاقدًا لتوازنه إلى هذه اللحظة، وقال إن الأمة الجريحة استعادت شرفها، وتغيرت الخريطة السياسية للشرق الأوسط. بيد أن الأزمة كانت بالفعل قد أصابت الاقتصاد العالمي في عمومه، عندما أعلنت منظمة الأوبك، في 17 أكتوبر، حظر بيع النفط، بهدف إرغام الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين على دفع إسرائيل باتجاه تسوية. وزاد سعر برميل النفط حينذاك بنسبة 400 في المائة مقارنةً بمستواه قبل الأزمة.

- في اليوم التالي، بدأ السفير السوفيتي أناتولي دوبرينين وهنري كيسنجر يصوغان نص اتفاق وقف إطلاق النار الذي قُدم إلى مجلس الأمن في 22 أكتوبر، وتم اعتماده بالإجماع. وحسبما هو معروف، فإنه منذ هدنة عامَيْ 1948 و1949 لم يحدث أن تفاوض مسؤولون مصريون وإسرائيليون وجهًا لوجه. ولكن على نحو لم تتوقعه الأطراف كافة، أبلغ السادات الإسرائيليين بأنه سيرسل ضباطًا عسكريين إلى الكيلومتر 80 من طريق القاهرة-السويس لمناقشة تفاصيل قرار مقترح من الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار. ولم يكن ذلك يعني اعترافًا رسميًا أو دبلوماسيًا بإسرائيل، وإنما كان رمزًا لعزم السادات على توجيه مصر في مسار جديد.

- في نوفمبر 1973، التقى وزير الخارجية هنري كيسنجر السادات شخصيًا لأول مرة في قصر الطاهرة بالقاهرة. واقترح السادات خطة من ست نقاط سماها «خطة كيسنجر»، تضمنت فك الاشتباك بين القوات الإسرائيلية والمصرية، واستعادة العلاقات الدبلوماسية الأمريكية-المصرية. كان هدف السادات هو إنهاء الصراع مع إسرائيل، وهو الصراع الذي استنزف طاقة

مـصر وثقتهـا منـذ حـرب يونيـو 1967، إذ إن وجـود إسرائيـل في حـد ذاتـه لم يكن هو الذي يشكل تهديدًا لوجود مصر، وإنما الحرب معها.

- كان مـن المفـترض أن تـأتي الخطـوة المنطقيـة تجـاه السـلام مـع إسرائيـل عـلى شـكل اتفـاق بشـأن الضفـة الغربيـة لنهـر الأردن، التـي احتلتهـا إسرائيـل في أعقـاب حـرب يونيـو 1967. لكـن هـذا الخيـار اسـتُبعد بسـبب المشـهد السـياسي الداخـلي العـربي. وفي أكتوبـر 1974، اتخـذت جامعـة الـدول العربيـة قـرارًا باعتبـار «منظمـة التحريـر الفلسـطينية» الممثـل الشرعـي الوحيـد للفلسـطينيين. وكان هـذا يعنـي أن أي محاولـة إسرائيليـة للانفصـال عـن الضفـة الغربيـة، عـن طريـق التفـاوض مـع الملـك حسـين ملـك الأردن، سـوف تقـود عـلى الفـور إلى صراع أهـلي في العـالم العـربي. ولم تكـن إسرائيـل مسـتعدة آنـذاك للتعامـل مـع منظمة التحرير الفلسطينية العازمة على تدمير إسرائيل.

- في الوقـت نفسـه، وصلـت قيـادة جديـدة إلى البيـت الأبيـض، حيـث أدى جيرالـد فـورد اليمـين الدسـتورية كرئيـس في أعقـاب اسـتقالة نيكسـون. وبالتـوازي مـع ذلـك، أدى إسـحاق رابـين اليمـين الدسـتورية بوصفـه رئيـس الـوزراء الإسرائيـلي الجديـد. وتجـدر الإشـارة إلى أن رابـين، وهـو أحـد القـادة السـابقين في الجيـش الإسرائيـلي أثنـاء حـرب عـام 1967، كان لديـه قناعـة بـأن وضـع إسرائيـل الهـش عـلى مـدى تاريخهـا لا يمكـن تجـاوزه إلَّا مـن خـلال ربـط الشـعب الإسرائيـلي بجيرانـه العـرب. كان رابـين حاصـلًا عـلى تعليـم جيـد، ولديـه درجـة عاليـة مـن الـذكاء، وكان ينظـر إلى عمليـة التفـاوض مـن خـلال منظـور تحليـلي. وبالنسـبة لـه، كان يفضـل النهـج التدريجـي، وقـد عـبَّر عنـه بمقولـة: «قطعـة مـن الأرض مقابل قطعة من السلام».

- في عـام 1975، بـدأ السـادات ورابـين يستكشـفان مفاوضـات سـلام تجريبيـة. كان الرجـلان ملتزميْن بفكـرة السـلام، واتفقـا عـلى نهـج تدريجـي ومتعـدد المراحـل.

كان المفهوم المطروح على الطاولة يقوم على انسحاب إسرائيلي آخر مقابل إعلان مصري بعدم الاعتداء. وفي عام 1975 بدا في الأفق شيء من الاتفاق، أقامت مصر وإسرائيل بموجبه توازنًا بين الضرورات العسكرية والأوضاع السياسية.

- في أبريل 1977، قدم السادات إلى الرئيس الأمريكي جيمي كارتر - الذي جرى تنصيبه حديثًا - خطة سلام، تدعو إلى إقامة دولة فلسطينية، مع الانسحاب الإسرائيلي إلى حدود ما قبل عام 1967. وقال السادات إنه مستعد أيضًا للاعتراف رسميًا بإسرائيل، وإنه لن يعترض على المساعدة الأمريكية أو الضمانات المقدمة للدولة الفلسطينية المرتقبة. بيد أن رئيس الوزراء الإسرائيلي - المنتخب حديثًا أيضًا - استبعد التوصل إلى «سلام مُلْزِم» مع مصر إذا كان يتضمن الانسحاب إلى حدود ما قبل عام 1967.

أظهرت السنوات الأربع التالية أن ما قام به السادات خلق أمام الطرفين كثيرًا من العقبات. جاءت أولى الاتهامات من العالم العربي، حيث شعر القادة العرب أن السادات خانهم شخصيًا من خلال عدم تشاوره معهم. وفي مؤتمر عُقد في طرابلس الغرب في ديسمبر 1977، وصفت سوريا والجزائر واليمن الجنوبي وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية تصرفات السادات بأنها «خيانة عظمى»، واتفقت على فرض إجراءات مقاطعة عقابية ضد أي مؤسسات مصرية تتعامل تجاريًا مع إسرائيل. وعلى إثر ذلك بوقت قصير، قطعت مصر علاقاتها مع خمس دول عربية، إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية.

- في العام التالي، تعثرت خطوات بيغن والسادات نحو السلام، ما سبّب إزعاجًا للسادات الذي طلب من كارتر الانضمام إلى طاولة المفاوضات. استجاب الرئيس الأمريكي إلى هذا الاقتراح، وأرسل دعوة إلى كُلٍّ من السادات وبيغن للاجتماع في كامب ديفيد في سبتمبر 1978. في هذا الاجتماع اتفق

الطرفان على نبذ استخدام القوة، وعلى تطبيع العلاقات، وتوقيع معاهدة سلام ثنائية، والسماح باستمرار وجود قوات الأمم المتحدة حول قناة السويس. وفي هذا الاجتماع أيضًا وافقت إسرائيل على الانسحاب من سيناء بكاملها.

- قوبلت اتفاقية كامب ديفيد بالرفض من أبرز القادة العرب؛ لفشلها في تسوية الوضع النهائي للضفة الغربية وقطاع غزة، وعدم إشراك منظمة التحرير الفلسطينية في المفاوضات. وأسهمت المعارضة العربية الخارجية في تغذية العداء للسادات داخل مصر.

- يُذكر أنه في عام 1974، بدأ السادات الترويج لسياسات الانفتاح الاقتصادي من خلال تشريع قوانين حررت الاقتصاد المصري.

- في يناير 1977، عندما حاول السادات رفع الدعم عن المواد الغذائية الأساسية مثل الخبز، اندلعت أعمال شغب في جميع أنحاء البلاد، وبلغ عدد المتظاهرين 30 ألف شخص في القاهرة وحدها. كان من أقوى خصومه في تلك المرحلة جماعة التكفير والهجرة، التي كرست جهودها لمحاربة النفوذ الغربي والصهيونية، وعارضت جهود السلام التي بذلها السادات. وسرعان ما تحولت المعارضة إلى العنف، حيث قامت الجماعة الأصولية باختطاف أحد وزراء السادات السابقين وإعدامه في يوليو 1977.

- في 6 أكتوبر 1981، احتفلت مصر بالذكرى الثامنة لحرب أكتوبر. كان السادات جالسًا على المنصة يشاهد العرض العسكري، عندما توقفت فجأة إحدى الشاحنات، وأطلق أحد المتشددين المسلحين النار على السادات، فقتله مع عشرة أشخاص آخرين. وهكذا تحول طريق السادات من السعي لتحقيق حلم المصالحة التاريخية إلى طريق لنيل الشهادة.

- كان السادات يعتقد أن حرية مصر ستتحقق أولًا من خلال الاستقلال، ثم من خلال المصالحة التاريخية. وكان هدفه إحياء حوار قديم بين اليهود والعرب، بناءً على فهمه أن بينهما تاريخًا مشتركًا. وهذا الإيمان في إمكانية التوافق والتعايش بين المجتمعات ذات العقائد الدينية المختلفة هو الأمر الذي لم يحتمله خصومه.

- كانت رؤية السادات لمصر أنها «دولة إسلامية مسالمة»، تمتلك من القوة ما يمكنها من إبرام شراكة مع عدوتها السابقة، بدلًا من الخضوع لهيمنتها أو محاولة الهيمنة عليها. وقد أدرك أن السلام العادل لا يمكن أن تفرضه قوى خارجية، وأنه لن يتحقق إلَّا من خلال التقدم والاعتراف بالمصالح المشتركة. ولكن رؤيته كانت بعيدة كل البعد عن رؤية أقرانه ومعاصريه، مما جعل تطبيقها صعبًا عليه. ولم يبقَ منها بعد مصرعه إلَّا العناصر العملية التي كان يعتبرها سريعة الزوال.

الفصل الخامس: لي كوان يو، أول رئيس وزراء لسنغافورة (1959- 1990).

- في عام 1968، ذهب لي كوان يو، رئيس وزراء سنغافورة، إلى جامعة هارفارد لقضاء إجازة مدتها شهر. كان لي معروفًا بقيادته لحزب شبه اشتراكي في دولة حديثة التأسيس في حقبة ما بعد الاستعمار. وفي اجتماع مع أعضاء هيئة التدريس بجامعة هارفارد، قال لي إن سنغافورة تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية لضمان أمنها، في مواجهة هجمات العصابات الشيوعية التي تدعمها الصين في جنوب شرق آسيا.

- لم يُحَمِّل لي الولايات المتحدة الأمريكية مسؤولية التحديات التي تواجهها سنغافورة، بل سعى للحصول على وعود منها بمساعدة سنغافورة في تحقيق النمو الاقتصادي وضمان الأمن. وشدد على أن المورد الرئيسي لسنغافورة هو شعبها، ولكنه طلب دعمًا أمريكيًا لمواجهة التحديات التي يمثلها انسحاب القوات البريطانية من سنغافورة. وقد أظهر منهجه أنه رجل دولة، يمتلك القدرة على تحليل الأمور بشكل واضح، ويتحلى بالشجاعة اللازمة للسير عكس التيار السائد.

- يبيّن كيسنجر أن إحدى الصفات الأساسية لرجل الدولة هي قدرته على مقاومة الانجراف مع التيار السائد. ويذكر أن مشاركة لي في تلك الندوة الدراسية بجامعة هارفارد كانت مفيدة، ليس فقط من أجل وصوله إلى تحليل واضح لمكانة كل من الولايات المتحدة الأمريكية وسنغافورة في العالم، بل أيضًا لأنها أمدته بمزيد من الشجاعة اللازمة للوقوف ضد التيار.

- كانت إنجازات لي كوان يو مختلفة عن إنجازات القادة الآخرين المذكورين في الكتاب. فالقادة الآخرون كانوا يمثلون دولًا ذات تاريخ ثري، بينما كان لي قائدًا لسنغافورة الدولة المستقلة حديثًا. ولكن لي أصبح رجل دولة عالميًا، ومستشارًا لقادة بعض القوى العظمى، مثل ريتشارد نيكسون ومارغريت تاتشر.

- إن نجاح القادة - مثل لي - يُقاس من خلال توظيفهم لتاريخ مجتمعهم وقِيَمه، للوصول به إلى مستقبل ناجح. فقد استطاع لي تحويل سنغافورة من كيان سياسي لا وجود له إلى دولة ديناميكية، تتميز بتنوع عرقي، وتمتلك اقتصادًا عالميًا، على الرغم من صغر حجمها وافتقارها إلى الموارد الطبيعية.

- بسبب افتقارها إلى العمق التاريخي، كان بقاء سنغافورة يعتمد على أن تحقق أداءً عاليًا. وقد شدّد لي على الحاجة إلى التميز لضمان بقاء سنغافورة ونجاحها. وكان أثناء قيادته يُوَجِّه السياستيْن - الداخلية والخارجية - للحفاظ على النمو الاقتصادي وتعزيز التماسك المحلي والعلاقات الخارجية. كان لديه وعي تاريخي بالتحديات التي تواجه الدول الصغيرة المكونة من مدينة واحدة، ومقتنعًا بضرورة التحسين المستمر.

- شملت رؤية لي السعي لتحقيق التميز على مستوى المجتمع، وتشجيع النجاح المشترك، وعدم القبول بالأداء المتوسط. كان يؤمن بإمكانات شعبه، ويعمل على تعزيز الثقة به محليًا ودوليًا. وقد درست الصين نهج لي، وطبقته من خلال الإصلاحات التي نفذتها بعد رؤية نجاح سنغافورة. وغنيٌّ عن الذكر أن زيارة الرئيس الصيني دينج شياو بينج لسنغافورة عام 1978، وما رآه فيها، كان له تأثير مباشر على الإصلاحات التي حدثت في الصين في حقبة ما بعد ماو تسي تونج.

- وُلِدَ لي كوان يو في عام 1923، بعد أكثر من قرن على تأسيس سنغافورة كمركز تجاري على يد السير ستامفورد رافلز، نائب حاكم المستعمرة البريطانية في سومطرة. وقد نمت سنغافورة التي أسسها رافلز في عام 1819 نموًا سريعًا بسبب التجارة والموارد الطبيعية، واستقرت فيها مجموعات عرقية متنوعة، ثم أصبح العرق الصيني أغلبية. حين وُلِدَ لي، كانت سنغافورة تمثل أهمية حيوية للاستراتيجية العسكرية البريطانية في آسيا. وقد ازدهرت عائلة لي في عشرينيات القرن الماضي، وتأثرت تربيته بتأثيرات صينية وإنجليزية.

- على الرغم من أن لي درس باللغة الإنجليزية، فقد كانت تربيته صينية تقليدية، وتأثر بالقيم الكونفوشيوسية. عانى والدا لي من الكساد الكبير في عام 1929، ومع ذلك فقد أعطيا الأولوية لتعليم أطفالهما. كان لي متفوقًا في دراسته، ودرس القانون في سنغافورة، ثم حصل على منحة من الملكة للدراسة في إنجلترا. بعد ذلك، خلال الحرب العالمية الثانية، وعلى يد الاحتلال الياباني، تحطمت لدى لي وغيره من السنغافوريين صورة بريطانيا التي لا تُقهر. وكان لدروس البقاء العملية التي تعلمها لي خلال فترة الاحتلال أثرٌ كبيرٌ على نهجه في الحكم بعد ذلك.

- بعد الحرب العالمية الثانية، تزوج لي من كوا جيوك تشو، التي كان لها تأثير فكري كبير في حياته. كانت آراء لي خلال فترة تعليمه العالي في كامبريدج تميل نحو الاشتراكية ومناهضة للاستعمار، ومستمدة من حركات الاستقلال العالمية. بدأ لي مشاركته في الحياة العامة أثناء وجوده في بريطانيا، حيث أيد الحكم الذاتي للمالايا، وطالب بالاستقلال التعاوني والتدريجي بشكل يحقق منفعة متبادلة مع القوة المستعمرة.

- بعد الحرب العالمية الثانية، وأثناء وجود لي في إنجلترا، واجهت سنغافورة اضطرابات، وصلت إلى حد تقنين الطعام، في ظل انتشار مرض السل. وقد تقلَّد لي منصب رئيس الوزراء في فترة شهدت فيها بلاده تغييرات دستورية.

فقام بإنشاء مجلس الإسكان والتعمير لبناء مساكن ميسورة التكلفة والقضاء على نقص المساكن، وقضى على الفساد من خلال سن قوانين صارمة تم تطبيقها بحزم.

- كانت سياسات لي تربط الرخاء الفردي باستقرار الدولة، الذي تعزز نتيجة لمكافحة الفساد. كما أكد على النظام العام والوئام المجتمعي، معتبرًا أن الدولة المنظمة ضمان للحرية. واستثمر في التعليم والصحة والخدمات العامة، مما أحدث تحولًا في جودة الحياة في سنغافورة. أنشأ لي أيضًا مؤسسات شبه سياسية لتعزيز المشاركة العامة، ودمج حزب العمل الشعبي في مؤسسات الدولة. وحافظ حزب العمل الشعبي على هيمنته من خلال المناورات السياسية والنظام الانتخابي والإجراءات القانونية.

- بعد انفصال سنغافورة عن ماليزيا في عام 1965، أصبحت سنغافورة وحيدة، وثارت مخاوف بشأن قدرتها على البقاء. ولكن شعور لي بوضع سنغافورة الصعب زاد من تصميمه على أن تحقق بلاده أداءً متميزًا لضمان البقاء.

- في سبعينيات القرن الماضي، توقع أرنولد توينبي أن حجم سنغافورة الصغير سيعوق قدرتها على البقاء كدولة ذات سيادة. ولكن لي أثبت عكس ذلك، وسعى إلى إنشاء أمة موحدة من أعراقها المتنوعة، حيث قال في عام 1963: «إن عظمة الأمة لا تكمن في حجمها فقط، بل في إرادة شعبها وتماسكه وانضباطه، وقدرته على التحمل، ونوعية قادته، وهذا ما يضمن لها مكانة مشرفة في التاريخ».

- يرى لي أن الشعب المترابط بشدة، الذي لديه شعور بالانتماء المشترك والقدرة على التكيف، سيكون قادرًا على مواجهة أصعب التحديات. وقد أدرك أن سنغافورة تفتقر إلى مكونات الأمة - وهي اللغة والثقافة والمصير المشترك - فركز على وحدة الأعراق والأديان لبناء أمة سنغافورية.

- لم يلجأ لي إلى أسلوب تحريض الأعراق المتنوعة بعضها ضد بعض، بل قام بتوجيه التنوع وإدارته. وشملت سياسته اللغوية تعليمًا ثنائي اللغة، مما جعل اللغة الإنجليزية قاسمًا مشتركًا، وأسهم في تحقيق فوائد اقتصادية وإبراز انفتاح البلاد.

- كان بناء الجيش يمثل أولوية لردع أي عدوان؛ نظرًا لعدم وجود قوات موالية بعد الانفصال عن ماليزيا. وقد حصل لي على مساعدة عسكرية من إسرائيل، ولكنه كان يشير إلى المستشارين الإسرائيليين بكلمة «المكسيكيين»، لكي يتجنب أي رد فعل عنيف. ومن هنا أصبح النموذج الأمني في سنغافورة يعكس نظيره في إسرائيل، حيث تمتلك البلاد جيشًا صغيرًا، ولكنه محترف، ولديها قدرات احتياطية. يعتقد لي أن الخدمة الوطنية عززت الوحدة والمساواة الاجتماعية بين المجموعات العرقية. وأصبحت القوات المسلحة السنغافورية ذات قدرات عالية خلال جيل واحد.

- الانفصال عن ماليزيا أدى إلى تحول نهج لي الاشتراكي نحو النمو الاقتصادي العملي والمشاركة العادلة، حيث أدرك أنه لا يوجد دليل إرشادي جاهز لبناء أمة من مهاجرين متنوعين. وشكلت تجاربه خلال الحرب العالمية الثانية، والنضالات السياسية، وانفصال ماليزيا، كل ذلك شكّل قناعاته المتعلقة بالحكم. كما أثرت رحلاته الكثيرة وأحاديثه مع القادة الأجانب على آرائه حول أداء الأمة.

- رفض لي الشيوعية؛ لأنها حسب رؤيته تعني تفكيك المؤسسات القائمة التي كانت تعمل جيدًا. وجاء تفضيله لاقتصاد السوق بناء على ملاحظته بأنه يحقق معدلات نمو أعلى. وسعت سياسته المتعلقة بالهجرة إلى إقناع الأجانب الموهوبين بالاستقرار في سنغافورة. لم يكن الغرض من ذلك تنفيذ أفكار نظرية حول فوائد التعددية الثقافية، بل كان تلبية لمتطلبات نمو سنغافورة وتركيبتها السكانية. كما أنه أدخل النساء في القوى العاملة.

- كان لي يعتقد أن عظمة الأمة تكمن في تلاحمها وانضباطها وقدرتها على التحمل ونوعية قيادتها. وأصبحت مقولة «دع التاريخ يحكم» هي المبدأ الذي يُوَجِّه لي في اتخاذ القرارات، حيث تبنَّى سياسات هجرة تهدف لتحقيق النمو في سنغافورة، ولا تكتفي بمجرد التعددية الثقافية النظرية. كان لتفكيره جانب نفعي قوي يهدف إلى تحقيق أقصى قدر من الرفاهية والتقدم للمواطنين. وأجرى مفاضلة بين أنظمة الحكم لتحديد أكثرها فاعلية لرفاهية الأمة.

- في عام 1968، قررت بريطانيا إنهاء وجودها العسكري في سنغافورة، مما شكل تهديدًا لاقتصادها. حينذاك طلب لي المشورة من الخبير الاقتصادي ألبرت وينسيميوس، الذي نصحه بالتصنيع، وخفض الأجور، والاعتماد على التكنولوجيا. قام لي ووزير ماليته - جوه كينج سوي - بإعادة تصميم الاقتصاد، والترحيب بالشركات متعددة الجنسيات، والتركيز على مهارة القوى العاملة. كما تم تنفيذ مشاريع لتخضير المدن، وتوفير خدمات عالية الجودة، وإطلاق مبادرات لجذب الاستثمارات الأجنبية.

- بحلول عام 1971، كان اقتصاد سنغافورة ينمو بمعدل يفوق 8% سنويًا، وكان أكثر من نصف القوة العاملة يعمل في شركات متعددة الجنسيات. وبحلول عام 1973، أصبحت سنغافورة مركزًا رئيسيًا لتكرير النفط، وجذبت استثمارات أجنبية كبيرة. على الرغم من المخاوف الأولية، استطاعت سنغافورة أن تمتص الصدمة الاقتصادية الناتجة عن مغادرة القوات البريطانية، وذلك بفضل قدرة لي على التكيف. وقد أعطى لي الأولوية للتعليم، وعمل على زيادة الإنتاجية ورفع الأهداف الصناعية والاجتماعية. وخلال ثلاثة عقود، قاد لي مسيرة التنمية في سنغافورة، انطلاقًا من مرحلة الكفاف، ووصولًا إلى مرحلة الابتكار واستخدام التكنولوجيا العالية. وبحلول عام 1990، كانت سنغافورة تحت قيادة لي قد حققت نجاحًا اقتصاديًا تُحسد عليه، متجاوزة كل التوقعات.

- خلال زيارته لجامعة هارفارد في عام 1968، دافع لي كوان يو عن تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في الهند الصينية، وظل يدافع عنه لسنوات، مؤكدًا على دور واشنطن في مستقبل آسيا. كانت تحليلات لي تحظى بالاحترام بسبب دقتها، وبسبب قدرته على فهم جوهر الأمور المعقدة، فقد كان يسعى إلى ترسيخ النظام العالمي والمحافظة على التوازن بين القوى العظمى. وكان يقدّر كرم الولايات المتحدة الأمريكية وانفتاحها، ويعترف بدورها في نشر الاستقرار في فترة ما بعد الحرب.

- أدرك لي أن كُلًا من الولايات المتحدة الأمريكية والصين تلعبان دورًا محوريًا في بقاء سنغافورة ومكانتها في العالم، ولكنه كان يرى أن الدور الأمريكي أكثر ضرورةً للمحافظة على التوازن في جنوب شرق آسيا. فنصح الولايات المتحدة الأمريكية بالموازنة بين مُثُلها العليا وبين الوقائع الاستراتيجية، محذرًا إياها من الانعزالية الجديدة.

- بعد تنحيه عن رئاسة الوزراء، ظل لي يُذَكّر الولايات المتحدة الأمريكية بمسؤولياتها العالمية وأهمية الحفاظ على التوازن. كان يحترم الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن مواقفها المتقلبة كانت تُشعره بعدم الارتياح. كما كان يحترم الصين ويخشاها بسبب سعيها المستمر لتحقيق أهدافها. كانت رؤية لي الجيوسياسية تتمحور حول ضمان ازدهار سنغافورة من خلال إقامة علاقات متوازنة مع القوى العظمى.

- توقع لي كوان يو قدرة الصين على الهيمنة في آسيا، وأدرك تصميمها على ذلك. كما توقع صعود الصين في نهاية المطاف على الرغم من تخلفها الاقتصادي حينذاك، ولكنه توقع أيضًا أن تبقى ضعيفة في المدى المتوسط، بسبب نظامها الشيوعي وافتقارها إلى المعرفة العملية. وقد تغيرت نظرته بشأن صعود الصين، فتحولت من الاحترام الممزوج بالخوف إلى إدراك أنها

باتـت تمثـل التحـدي الرئيـسي في تلـك الحقبـة. كان لي يـرى أن ميـول الصـين الإمبرياليـة عـبر تاريخهـا يمكـن أن تدفعهـا نحـو الهيمنـة، فحـرص عـلى أن تكـون سـنغافورة دولـة مسـتقلة في علاقاتهـا مـع كل مـن الصـين والقوتـيْن العظميـيْن الأخريْن (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت).

- رحـب لي بالزعيـم الصينـي دينـج شـياو بينـج في زيارتـه لسـنغافورة عـام 1978، في محاولـة لتخفيـف ميـل السياسـة الصينيـة نحـو الهيمنـة. وتجـدر الإشـارة هنـا إلى أن هـذه الزيـارة قـد عـزّزت مـن قناعـة دينـج بـضرورة إجـراء إصلاحـات اقتصاديـة في الصـين، وأدت إلى تبنِّيـه سياسـات الانفتـاح الاقتصـادي. كان لي يُدرك قـدرة دينـج عـلى تغيـير سياسـات مـاو، ورأى في انهيـار الاتحـاد السـوفيتي دليـلًا على عدم فهم غورباتشوف للأوضاع الدولية.

- كان تحذيـر لي كـوان يـو بشـأن صعـود الصـين مقلقًـا للولايـات المتحـدة الأمريكيـة، حيـث توقـع أن تسـعى الصـين إلى مشـاركة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في الهيمنـة عـلى العـالم، مـما سـيؤدي إلى اضطـراب التـوازن العالمـي. وشـدد عـلى ضرورة وجـود علاقـة متوازنـة وديـة بـين الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والصـين؛ مـن أجـل تقـدم سـنغافورة. كـما حـث الجيـل الصاعـد في الصـين عـلى التواضـع، وحـث الولايـات المتحـدة الأمريكيـة عـلى إشراك الصـين في المجتمع الدولي.

- رأى لي في احتـمال نشـوب حـرب بـين الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والصـين أمـرًا مرعبًـا، وشـدد عـلى ضرورة التـزام البلديـن بضبـط النفـس. وتوقـع أن يـؤدي صعـود الصـين إلى ظهـور تحديـات بالنسـبة لهـا وللولايـات المتحـدة الأمريكيـة عـلى السـواء، وتساءل عما إذا كان بإمكانهما تحويل السلوك العدائي إلى تعايش سلمي.

- كان لي قائـدًا يحظـى بالاحـترام عـلى جانبـيْ المحيـط الهـادي، ويمثـل ضمـير العـالم، وكان يدعـو إلى الحكمـة وضبـط النفـس لمنـع وقـوع كارثـة عالميـة. ويـرى

كيسنجر أن مصير العالم الحديث يعتمد على قدرة الولايات المتحدة الأمريكية والصين - معًا - على التعايش وتجنب الانزلاق نحو الصراع.

- استقال لي كوان يو من منصب رئيس الوزراء في عام 1990، ونأى بنفسه تدريجيًا عن شؤون الحكم. ولكن ينبغي الاعتراف بأن الفضل يعود إليه في نمو نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي في سنغافورة، من 517 دولارًا في عام 1965، إلى 60 ألف دولار في عام 2020، مع نمو الناتج المحلي الإجمالي بمعدل 8% سنويًا. وكان النهج الذي اتبعه لتحقيق النمو الاقتصادي يقوم على التجارة الحرة والرأسمالية وتنفيذ عقود الأعمال. كما رأى في التنوع العرقي ميزة، وعمل على منع التدخل الخارجي في النزاعات المحلية. وكان يعتقد أن الأيديولوجيات السياسية غير مهمة لتطور المجتمع، مشددًا بدلًا من ذلك على أهمية الثقافة والتعايش.

- سار خلفاء لي على نهجه، وظل نظام الحكم في سنغافورة استبداديًا، مع استخدام الانتخابات لتقييم الأداء. فقد رأى لي أن تركيز سنغافورة على الديمقراطية في البداية ربما كان سيؤدي إلى ترسيخ الانقسامات العرقية وتعزيز السياسات القائمة على الهوية. ولذلك ركز على الإدارة العملية والكفاءة الفنية لخدمة المواطنين.

- يتمثل التحدي الذي يواجه سنغافورة في المستقبل في الموازنة بين التقدم الاقتصادي وبين التحول الديمقراطي والإنساني المحتمل. كان لي يجرب باستمرار، ويتبنى السياسات التي يثبت نجاحها. وهكذا أسس دولة، ووضع نهجًا لتنميتها، وأوضح دور الحكم الرشيد في تحديد طبيعة سنغافورة وكتابة تاريخها.

- كان لي كوان يو يعزو خصاله الشخصية إلى نشأته الصينية التقليدية، ويعتبر نفسه كونفوشيوسيًا بالفطرة. كان يؤمن بإعطاء الأولوية للمجتمع على المصالح

الفردية، وهذا بالطبع يتعارض مع المبادئ الأمريكية. كان لي يسعى لأن يكون مواطنًا مخلصًا ومسؤولًا وفق المُثُل الكونفوشيوسية. وكان يركز على التقدم ويكره إضاعة الوقت، ويعمل دائمًا على تحقيق أهداف المجتمع.

- أدت صداقة لي مع كيسنجر إلى مناقشات متنوعة بينهما. واستمرت علاقته القوية مع زوجته تشو حتى وفاتها بعد إصابتها بسكتة دماغية. وبعد وفاتها تضاءلت طاقته، ولكنه ظل يعمل بإخلاص. وما يزال إرثه متمثّلًا في التقدم والتفاهم والتعايش والقيادة الاستشرافية. كان يشدد على نوعية الشعب وأهمية القيادة في تقرير مصير المجتمع. وما يزال إرثه واضحًا وملهمًا في عالم اليوم الحافل بالاضطرابات الإقليمية والصراعات على النفوذ.

- الفصل السادس: مارغريت تاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا بين عامَيْ 1979 و1990

- رسمت قيادة مارغريت تاتشر بين عامَيْ 1979 و1990 معالم حقبة بكاملها في المملكة المتحدة. فقد عملت على التخلص من قيود الماضي والحنين إلى أمجاد الإمبراطورية. وحولت بريطانيا تحت قيادتها إلى أمة واثقة بقدراتها. في البداية، كانت هناك شكوك في إمكانية نجاحها بسبب جنسها، وضعف رأسمالها السياسي، ومكانتها الاجتماعية. فقد كانت أول امرأة تتولى رئاسة الوزراء في المملكة المتحدة، وواحدة من قلة من السياسيين المنتمين إلى الطبقة الوسطى الذين تولوا قيادة حزب المحافظين.

- تميزت قيادة تاتشر بالثبات الشخصي والنهج الفريد. وتميزت إصلاحاتها بالحزم والشجاعة السياسية. وارتبط كيسنجر بعلاقة صداقة قوية معها استمرت ما يقرب من أربعة عقود.

- تُعَدُّ معرفة النظام السياسي البريطاني أمرًا بالغ الأهمية لفهم أبعاد صعود مارغريت تاتشر وسقوطها. فعلى عكس نمط القيادة الفردي السائد في

الولايات المتحدة الأمريكية، تضطلع الأحزاب السياسية في المملكة المتحدة بأدوار مؤسسية، حيث يؤدي فوز الحزب في الانتخابات إلى هيمنته على البرلمان، وعندها يصبح بإمكانه تعيين رئيس وزراء جديد.

- ينتمي رئيس الوزراء في المملكة المتحدة إلى الحزب السياسي الفائز، ويتبع له إلى حَدٍّ ما، على عكس النظام الرئاسي الأمريكي. والنظام الوزاري في المملكة المتحدة يرفع من شأن الوزراء، ويوزع السلطة بين رئيس الوزراء والوزراء. وتعتمد سلطة رئيس الوزراء على انضباط حزبه وحفاظه على الأغلبية البرلمانية وثقة أعضاء الحزب فيه.

- مسألة الفصل بين السلطات أقل وضوحًا في المملكة المتحدة، حيث تندمج السلطتان التشريعية والتنفيذية. والتوافق بين رئيس الوزراء وبين الحزب، وتمتعهما بالتأييد الشعبي، هما اللذان يضمنان حسن سير العمل. وفي حالة انحراف رئيس الوزراء عن الأصول المتعارف عليها، أو ظهوره بمظهر ضعيف، يحتاج إلى دعم مجلس الوزراء والحزب.

- في نظام المملكة المتحدة، يحتاج قائد الحزب إلى الثبات والإيمان والبراعة وقوة الإقناع ليحافظ على منصبه. في عام 1974، تحدت مارغريت تاتشر إدوارد هيث على قيادة حزب المحافظين. وشكّل فوزها عليه بشكل غير متوقع تحولًا في مسيرة الحزب. كانت معتقدات تاتشر الأساسية تقوم على المجتمع الحر، وتوزيع السلطة، وتأييد المِلْكِيَّة الخاصة. وأسهمت هذه المعتقدات في بلورة سياساتها خلال فترة توليها رئاسة الوزراء من عام 1979 إلى عام 1990.

- عندما تولت تاتشر منصبها في عام 1979، واجهت تحديات المصاعب الاقتصادية وتدهور مكانة البلاد. فبعد الحرب العالمية الثانية، تضاءل نفوذ المملكة المتحدة حول العالم مع صعود القوة الأمريكية. ولذلك اقترح

تشرشل إقامة علاقة خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية تسمح للمملكة المتحدة بالمحافظة على نفوذ عالمي.

- في عام 1956، أظهرت أزمة قناة السويس تراجع قوة المملكة المتحدة، واعتمادها على الولايات المتحدة الأمريكية. وأدت المشكلات الاقتصادية وانتهاء الاستعمار إلى إضعاف مكانتها في العالم. ونشأ صراع هوية في المملكة المتحدة بين التوجه نحو تعزيز الروابط مع الولايات المتحدة الأمريكية، وبين الرغبة في توثيق العلاقات مع أوروبا. ويُذكر أن إدوارد هيث كان يسعى إلى تعزيز التوجه نحو أوروبا، مما تسبّب في تَوَتُّر العلاقات بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية. كان نيكسون يُفضّل هيث، في حين كان هيث يسعى إلى تقليص العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ من أجل المحافظة على صورة جيدة لبلاده في أوروبا.

- الأزمة الداخلية الأمريكية (ووترجيت،) والتحركات السوفيتية، أسهما في تعقيد العلاقات بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية. وعانت المملكة المتحدة في السبعينيات من صراعات اقتصادية وتضخم ونزاعات عمالية. وشهد شتاء 1978- 1979 إضرابات شديدة، أدت إلى أزمة ونقص في السلع، فيما كانت القيادة البريطانية السابقة منشغلة بالتركيز على مسألة إدارة تدهور مكانة بريطانيا، مما أوجد حاجة إلى قائد مختلف.

- تنحدر مارغريت روبرتس، المولودة عام 1925 في جرانثام، من عائلة متدينة، تقدر العمل الجاد والكتاب المقدس. كانت متفوقة في دراستها، وقادت رابطة أكسفورد للمحافظين، ثم حصلت على مقعد في البرلمان في عام 1959. في أول خطاب لها في مجلس العموم عام 1960، أيدت اطلاع الجمهور على مجريات اجتماعات الحكومة المحلية.

- تميزت تاتشر بكفاءتها والتزامها، مما مكنها من صعود السلم السياسي. كانت تحمل قِيَمًا محافظة، وتتبع أسلوبًا مباشرًا، وتعطي الأولوية للمبادئ على الوعود. كان لديها الشجاعة والقناعة، على الرغم من التوقعات بأن قيادتها للحزب ستكون وجيزة. وقد أسهمت نشأة تاتشر وقِيَمُها والتزامها في بلورة نهجها في القيادة.

- سعت تاتشر إلى إحداث تحول في البلاد، ووضعت سياسات واضحة، وآمنت بالعلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية. وامتدت علاقتها مع الولايات المتحدة الأمريكية إلى ما بعد تركها لمنصبها، حيث سعت إلى إجراء مناقشات بشأن رؤيتها وخياراتها.

- تبلورت وجهات نظر تاتشر بشأن السياسة الخارجية من خلال الدراسة الدؤوبة، وعقد ندوات مع المفكرين. كانت شديدة الإيمان بمسألة عدم انتهاك سيادة الدول، وبحق المواطنين في اختيار حكومتهم. كانت السيادة البريطانية مرتبطة بالتاريخ والجغرافيا والاستقلال. وكانت تاتشر تحترم القانون الدولي، ولكنها لم تكن تريد إشراك الأمم المتحدة دون ضرورة.

- كانت تاتشر تؤمن بضرورة امتلاك نظام دفاعي وطني قوي ورادع؛ من أجل المحافظة على السلام والسيادة. كان لديها قناعة قوية مناهضة للشيوعية، وروجت بقوة للديمقراطية الليبرالية باعتبارها متفوقة أخلاقيًا. وبغض النظر عن مبادئها، فإن وجود اتحاد سوفيتي مسلح نوويًا كان يعني أن دفاع المملكة المتحدة لا بُدَّ أن يعتمد على الشراكة مع الولايات المتحدة الأمريكية.

- شملت العلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية مشاورات وثيقة وصداقة تاريخية. كانت تاتشر معجبة بالولايات المتحدة الأمريكية، وتؤمن بالحاجة إلى تنفيذ مشروع مشترك لإحياء التحالف الغربي. وكان نهجها في

القيادة يوازن بين المبادئ والقدرة على التكيف، ويعتمد على جاذبيتها وقوة قيادتها. وكانت تقبل النتائج المنقوصة باعتبارها مرحلة في عملية أطول، وتفضل العمل على التقاعس.

- ركزت تاتشر بصورة أساسية على الإصلاح الداخلي، إلى جانب ما كانت تتمتع به أيضًا من حضور دولي بارز. لم يكن فوزها في عام 1979 مضمونًا، ولكن دراستها للاقتصاد مكنتها من اقتناص الفرص. كان برنامج تاتشر الاقتصادي يهدف إلى مكافحة التضخم، فرفعت أسعار الفائدة إلى 17%.

- على الرغم من الانتقادات، فإن إصلاحات تاتشر الاقتصادية استطاعت تغيير بريطانيا، حيث تم رفع الضوابط المفروضة على أسعار الصرف، وفُتحت البورصة، وتمت خصخصة الشركات المملوكة للدولة. كما نفذت «برنامج حق الشراء»، الذي حوّل المستأجرين إلى أصحاب منازل، وأسفر عن تكوين قواعد انتخابية جديدة.

- ونجحت إصلاحاتها الاقتصادية، حيث تراجعت معدلات التضخم والبطالة، وارتفع الدخل، وانخفض عدد أيام العمل الضائعة بسبب النزاعات العمالية. وقد استمر تأثير تاتشر الاقتصادي، حيث أثّر نهجها على حكومة حزب العمال الجديدة برئاسة توني بلير، ودفعها لتبني سياسات ذات ميول يمينية. وعلى الرغم من اضطرار تاتشر إلى ترك منصبها، فإن إرثها قد دفع خَلَفَيْها - بلير وبراون - لدعوتها إلى 10 داونينج ستريت لتناول الشاي معهما، مما يثبت استمرار تأثيرها على الوسط السياسي.

- كان من واجب تاتشر الدفاع عن المصالح البريطانية حول العالم والحفاظ على حلف الناتو. وشكّلت أزمة جزر فوكلاند اختبارًا لقوة عزيمتها، عندما غزت الأرجنتين الجزر عام 1982. ومن المعروف أن الأمم المتحدة قد طعنت في دفاع تاتشر عن السيادة البريطانية، حيث نظرت بعض الدول إلى غزو

الأرجنتين للجزر على أنه إنهاء للاستعمار. بينما أيد الرئيس الفرنسي ميتران موقف تاتشر.

- وازنت تاتشر بين المبادئ وبين الدبلوماسية في أزمة فوكلاند، وأدى تصرفها الحازم إلى إنشاء مجموعة عمل بحرية على الرغم من الشكوك. في البداية كانت الولايات المتحدة الأمريكية مترددة، ولكنها ساعدت بريطانيا سرًا وزودتها بإمدادات عسكرية. وقد أدى انتصار بريطانيا في حرب جزر فوكلاند إلى رفع مكانتها الدولية. وكانت تاتشر تفصل في نهجها بين شؤون المستعمرات وبين القضايا الاستراتيجية.

- بعد حرب فوكلاند، واجهت تاتشر تحدي مستقبل هونغ كونغ. كانت هونغ كونغ مستعمرة بريطانية منذ عام 1842، ولكن المناطق الجديدة المحيطة بها كانت مُستأجرة حتى عام 1997. رفضت الصين المزاعم التاريخية لبريطانيا، وأصرت على عودة هونغ كونغ إلى السيادة الصينية بحلول عام 1997. طلبت تاتشر تعهدًا من الصين باستمرار الإدارة البريطانية لهونغ كونغ، ولكن الصين رفضت السيادة والإدارة البريطانية، وتمسكت بموقف غير قابل للتفاوض في هذا الشأن.

- كانت بكين تريد إبقاء النظام الرأسمالي في هونغ كونغ تحت سيطرتها. ولم يكن العمل العسكري ممكنًا بالنسبة لتاتشر. وهكذا قادتها المحادثات إلى التفاوض حول المناطق الجديدة. وقد نص الإعلان الصيني البريطاني الصادر عام 1984 على نقل السيادة في عام 1997، مع استمرار الحكم الذاتي لمدة خمسين عامًا. وهكذا أسهمت تاتشر من خلال المفاوضات في دعم الحكم الذاتي لهونغ كونغ.

- كان للصراع في أيرلندا الشمالية تأثير شديد على تاتشر، وأضعف ثقتها بنفسها. ولكنها قاومت تكتيكات الترهيب التي اتبعها الجيش الجمهوري

الأيرلنـدي، وسـعت إلى إقـرار السـلام مـن خـلال المسـار الدبلومـاسي. توصلـت تاتـشر إلى الاتفاقيـة الإنجليزيـة الأيرلنديـة في عـام 1985 لإنهـاء الاضطرابـات، ولكنهـا كانـت متعاطفـة مـع أغلبيـة سـكان أيرلنـدا الشـمالية الذيـن يريـدون الوحـدة. عـلى الرغـم مـن هجـمات الجيـش الجمهـوري الأيرلنـدي، تابعـت تاتـشر مفاوضـات السـلام مـع أيرلنـدا، ولم يفلـح تفجـير برايتـون في عـام 1984 في إضعاف عزيمتها.

- وافقـت تاتـشر عـلى إجـراء محادثـات للتوصـل إلى الاتفاقيـة الإنجليزيـة الأيرلنديـة، التـي منحـت بعـض السـلطة للجانـب الأيرلنـدي، مـع الحفـاظ عـلى السـيادة البريطانيـة. وعـلى الرغـم مـن احتجاجـات الوحدويـين التـي أعقبـت إبـرام الاتفاقيـة، تحسـنت العلاقـات بـين الطرفـين، وإن كان نهجهـا لم يوقـف تمامًـا عنـف الجيـش الجمهـوري الأيرلنـدي، حتـى إبـرام اتفاقيـة الجمعـة العظيمـة عـام 1998 التـي حققـت السـلام في نهايـة المطـاف. ويتسـم إرث تاتـشر والجهـود التـي بذلتهـا لإحـلال السـلام في أيرلنـدا بأهميـة كبـيرة، حيـث إن رؤيتها مهدت الطريق لتهدئة نسبية في أيرلندا الشمالية.

- كان تأثـير تاتـشر عـلى الحـرب البـاردة نتيجـة لمزيـج مـن الواقعيـة والمثاليـة. فقـد كانـت تُشـدد عـلى فكـرة الدفـاع الوطنـي والـردع النـووي والتنسـيق بـين الحلفـاء. وتطـورت سياسـتها لتشـمل التعايـش مـع الاتحـاد السـوفيتي، ولكـن مـع عـدم السـعي إلى اسـترضائه. كـما أنهـا دعمـت الدبلوماسـية العامـة والمفاوضـات البنـاءة، ولكنهـا انتقـدت الهيمنـة والأيديولوجيـة السـوفيتية، مؤكـدة عـلى كرامـة الإنسـان. ودافعـت عـن التضامـن البريطـاني الأمريـكي والعلاقات عبر الأطلسي.

- وازنـت تاتـشر بـين العلاقـات مـع الحلفـاء، ودعمـت زيـادة الإنفـاق الدفاعـي. وشـددت عـلى أهميـة امتـلاك بريطانيـا قـوة نوويـة رادعـة مسـتقلة، مـع

التأكيد على التعاون الأمريكي البريطاني من خلال اتفاقية الدفاع المتبادل. ويُذكر في هذا الصدد أن موقف القوة النووية البريطانية في مقاومة الابتزاز النووي، وتأثير تاتشر على مناقشات الحد من التسلح، ومصداقية الناتو، كل ذلك كان له تأثير حاسم خلال هذه الفترة.

- سعت تاتشر إلى تعزيز العلاقات البريطانية الأمريكية، والدفاع في الوقت نفسه عن المصالح البريطانية. ولكن التدخل العسكري الأمريكي في غرينادا - دون استشارة تاتشر - أدى إلى توتر هذه العلاقات؛ ويعود السبب إلى أهمية غرينادا كمستعمرة بريطانية سابقة في الكومنولث. وقد رفضت تاتشر اعتذار ريغان، وانتقدت الغزو علنًا، وذكّرت الإدارة الأمريكية بأن تأييد بريطانيا لها لم يَعُدْ أمرًا مضمونًا.

- بعد فوزها في الانتخابات للمرة الثانية في عام 1983، بدأ تحرك تاتشر نحو إعادة تقييم العلاقات بين الشرق والغرب، وقد تزامن ذلك مع اهتمامها بالحوار مع القيادة السوفيتية الشابة، وعلى رأسها ميخائيل غورباتشوف، الذي عقدت معه اجتماع غداء في تشيكرز في ديسمبر 1984. كانت تاتشر متفائلة بشكل حذر بشأن إمكانية إجراء حوار مثمر مع غورباتشوف.

- في أعقاب قمة ريكيافيك، شعرت تاتشر بالقلق بسبب وجهة نظر ريغان في قضية التخلص من الأسلحة النووية. وبذلت جهودها لدفع ريغان إلى اتخاذ موقف أكثر صلابة، وقامت بزيارة إلى كامب ديفيد في نوفمبر 1986، الأمر الذي أسفر عن اتفاق بشأن الأسلحة الهجومية الاستراتيجية، وأكد على استمرار الناتو في الاعتماد على الردع النووي.

- هذا الدور الذي قامت به تاتشر في تقديم المشورة إلى ريغان، والتأكيد على العقيدة الدفاعية لحلف الناتو، أدى إلى إظهار حدود العلاقات البريطانية الأمريكية، في حقبة شهدت اختلالًا في التوازنات.

- لعبت المملكة المتحدة بقيادة تاتشر دورًا مهمًا في النزاعات العالمية خارج الناتو والحرب الباردة. وقد أثار غزو صدام حسين للكويت عام 1990 مخاوف لديها، وجعلها تقارن هذا الوضع بمحاولات الاسترضاء السابقة. ولهذا كانت مصممة على استعادة سيادة الكويت، وكان لهذا الموقف الأخلاقي الواضح تأثير على الإدارة الأمريكية آنذاك.

- في البداية كان هناك رد حذر من الرئيس جورج بوش الأب، ولكن حضور تاتشر وموقفها في مؤتمر أسبن كان له أثره في اتخاذ رد فعل أقوى. لقد أكدت تاتشر أن الغزو العراقي انتهاك لسيادة دولة الكويت، ودعت إلى اتخاذ موقف دولي قوي ضد هذا العدوان.

- أبدت تاتشر عدم رغبتها في إشراك الأمم المتحدة في تحرير الكويت، وفضّلت الحفاظ على حرية المملكة المتحدة في التصرف بالشكل الذي تراه مناسبًا. وقد تأثر موقفها بالضغوط السياسية المحلية والأمريكية. وأخيرًا استقالت تاتشر من منصبها في نوفمبر 1990.

- مما لا خلاف عليه أن رجال الدولة العظماء يعملون على توسيع حدود الحكمة التقليدية، وتوجيه المناقشات في اتجاهات جديدة. وينبغي الإشارة إلى أن موقف تاتشر من إعادة توحيد ألمانيا - بعد سقوط جدار برلين - تسبب في حدوث خلافات، إذ كانت قلقة من فكرة توحيد ألمانيا الشرقية والغربية؛ بسبب المخاوف التاريخية، والتغيير الذي قد يحدث في ميزان القوى.

- تُعزى شكوك تاتشر في النوايا الألمانية إلى تجربتها خلال الحرب العالمية الثانية. ولهذا اصطدمت خطط التكامل الأوروبية باعتقاد تاتشر بأن دمج ألمانيا في الاتحاد الأوروبي سيزيد من قوتها. ولكن على الرغم من مخاوف تاتشر، استمرت عملية توحيد ألمانيا، وثبت أن بعض آراء تاتشر حول الشخصية الألمانية لم يكن صائبًا.

عارضت تاتشر فكرة التكامل الأوروبي؛ بسبب إيمانها بالسيادة البرلمانية، وعدم ثقتها في نقل السلطات إلى مؤسسات غير منتخبة خارج الدولة. كانت تدعو إلى التحرير الاقتصادي ولكن دون الاندماج السياسي مع أوروبا، وتُشدد على الجوانب العملية والسياسات المؤيدة للسوق والحفاظ على الدول القومية.

في خطاب ألقته في كلية أوروبا بمدينة بروجس البلجيكية، انتقدت تاتشر الضغوط الساعية إلى تركيز السلطات وتكوين دولة أوروبية عظمى، وقارنتها بالتخطيط المركزي السوفيتي الفاشل. وسلط خطابها الضوء على تعاطفها مع نضال أوروبا الشرقية في سبيل الحرية، وإعجابها بالولايات المتحدة الأمريكية. وتكمن أهمية هذا الخطاب في أن تاتشر توقعت فيه حدوث التوترات بين الهوية البريطانية والتكامل الأوروبي.

أدت معارضة تاتشر للتكامل الأوروبي إلى حدوث انقسامات داخل حكومتها بشأن السياسة الاقتصادية. ومن المعروف أن النظام البريطاني يعتمد على التعاون بين رئيس الوزراء والحكومة من أجل العمل بفعالية. وعندما تضاءل الدعم الذي تحظى به تاتشر من حكومتها، قدم مايكل هيسيلتين نفسه مرشحًا بديلًا لها.

اختارت تاتشر احترام الالتزامات الدولية بدلًا من البقاء لمواجهة التحدي، وقررت الاستقالة في نهاية المطاف. وعلى الرغم من خروجها من السلطة ظلت تاتشر تدافع عن إنجازات حكومتها، وحظيت بالثناء من السياسيين، حتى من خارج حزبها.

كان إحياء تاتشر لبريطانيا يشمل الجانب الاقتصادي والروحي على حد سواء، حيث واجهت الاقتناع السائد آنذاك بفكرة تراجع مكانة بريطانيا، وقاومت هذا الإجماع السائد في السبعينيات، وقدمت رؤية إيجابية

للمستقبل. وأظهرت تاتشر التزامًا قويًا بقناعاتها، وواصلت مسيرتها على الرغم من التحديات والنقد العام.

شملت استراتيجيات تاتشر كبح جماح التضخم، واتخاذ موقف حازم في الصراع بشأن جزر فوكلاند، والالتزام بسياساتها أثناء إضراب عمال المناجم. وكانت توازن بين الوجود الحكومي القوي وبين الحرية الاقتصادية الفردية، وجذبت شرائح جديدة من الناخبين. وعلى الرغم من أن أعداءها اتهموها بخيانة مبادئ الحزب، فإنها - في الحقيقة - كانت تعمل على استعادة تلك المبادئ والتمسك بها.

في الشؤون الدولية، تحاورت تاتشر مع غورباتشوف، ودافعت عن العمل البيئي، وعالجت المخاوف بشأن التغير المناخي. وأسهمت سياستها الخارجية في تعزيز الشراكة البريطانية الأمريكية، والمحافظة على النفوذ البريطاني على المسرح العالمي. وبعد تقاعد تاتشر، راحت تصارع لإيجاد دور لها بعيدًا عن السياسة. كانت قيادتها مدفوعة بحب الوطن، وكان تأثيرها واضحًا في الاحترام الذي حظيت به في جنازتها.

الخاتمة: تطور القيادة

كُلٌّ من كونراد أديناور، وشارل ديغول، وريتشارد نيكسون، وأنور السادات، ولي كوان يو، ومارغريت تاتشر، قد أثّروا على الظروف التاريخية وتأثروا بها. وكان لكل واحد منهم دور في ظهور نظام عالمي جديد.

واجه هؤلاء القادة تحديات الحرب الباردة، ونهاية الاستعمار، وتأثيرات العولمة. وظهروا في فترة التحول الثقافي من الأرستقراطية الوراثية إلى حكم الجدارة. كانت الأرستقراطية تعني في الأصل حكم الأفضل، ولكنها أصبحت فيما بعد تشير إلى النُبْل المتوارث. وبفضل مبادئ الجدارة والديمقراطية، ظهر قادة من الطبقة الوسطى. إذ لم ينحدر أي من هؤلاء القادة الستة من الطبقة العليا.

جمع هؤلاء القادة بين الصفات الأرستقراطية وبين طموحات الجدارة، إلى جانب قِيَم الطبقة الوسطى، التي تشمل الانضباط، وتحسين الذات، والوطنية، والإيمان بالمجتمع. كان لديهم شعور قوي بالهوية الوطنية وبالمسؤولية تجاه مواطنيهم. وقد تربى معظمهم تربية متدينة، غرست فيهم إتقان العمل والتفكير على المدى الطويل.

كان الصدق والصراحة سمات مشتركة بين هؤلاء القادة الستة. حيث كانوا يتجنبون استخدام الخطاب الذي يتم استخدامه في استطلاعات الرأي والنقاشات المركزة. ولم يكونوا يخشون قول الحقيقة الصعبة وتحدي الآراء السائدة. وكان لديهم إحساس عميق بالواقع ورؤية للمستقبل. فالقادة

العظـام يميـزون العنـاصر المهمـة عـن العاديـة. وجرأتهـم في مناقشـة القضايـا الوطنيـة المهمـة مكنتهـم مـن تـرك أثـر تاريخـي. وكانـت هـذه صفـات مشـتركة بين القادة الستة، على الرغم من اختلاف المجتمعات التي ينتمون إليها.

إذا كانـت التطـورات التكنولوجيـة تفـرض عـلى القـادة فهـم آثارهـا، وتعزيـز ضبـط النفـس الاسـتراتيجي، فـإن قـادة اليـوم ينبغـي عليهـم التحـلي بالعزيمـة القويـة، والابتـكار في التعامـل مـع التعقيـدات؛ لتحقيـق النتائـج التـي يطمحون إليها.